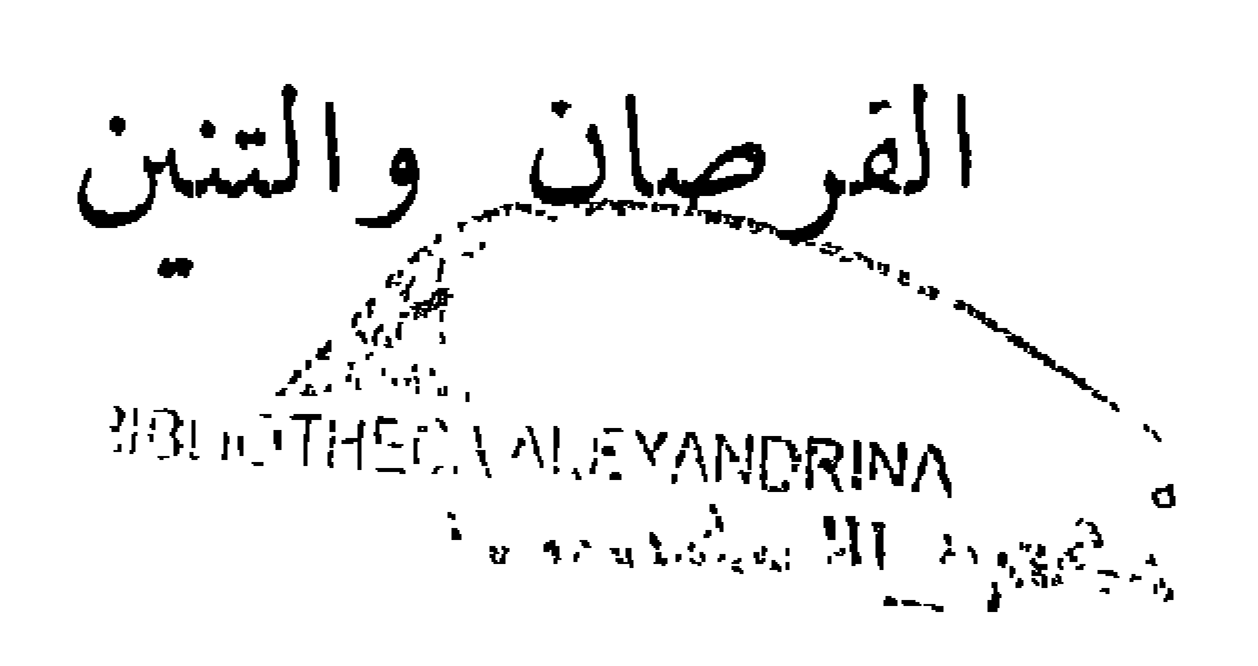


القرصان والتنين

تأليف : فاروق خورشيد

القرصان والتنين



الطبعة الاولى
يوليو ١٩٧١

الهيئة العامة للتأليف والنشر
١٩٧١

القرصان والتنين

مجموعة قصصية

تأليف : فاروق خورشيد

الإهـداء

الى (الكل باطل)
بعد عشر سنوات
فاروق خورشيد

الذكاء

يا ضياع من أضاعه الليل ..

١٩٦٣

نحن نعيش مغلفين بالذكاء ..

الذكاء يخنقنا .. يقتلنا .. يضرب على أنفاسنا بستار من حديد .. وأنا وأنت وباقى الرفاق عبيد اللحظة التى يغيب فيها الذكاء فنعرف ، ونرى الدنيا على حقيقتها من وراء ذلك المارد العملاق الذى يقف بيننا وبين العالم واسمه الذكاء ..

عفوا ، فأنا سكران ، وكلماتى متلعثمة ، ويدى تدور فى الصفحة البيضاء وتدور قبل أن تخط الحروف وما أقل الحروف التى نجد ونحن سكارى لكى تصبح كلمات تتبلور حقائق عارية من غير قيد ، من غير حجاب ..

فحتى الكلمات لا حياة لها بغير ذكاء ..

وصاحبتنا الليلة ، صاحبة الدمعة الدائرة فى المقلتين المنسكبة

على كأس وفيرة ومعدة خالية وآهـة سجينة من طول بكاء .. صاحبتنا هذه أغلقت أمام عيني منافذ الذكاء ..

مخدوع أنا ، مخدوع بكل ما بقي فى من ارادة الحياة .. أريد أن يسرقني ذكاء انسان أحضر ذكاءه معه فنسى الحياة ونسيت ذكائي .. وعشت أنا الحياة ..

وأنا وأنت كنا بغير ذكاء .. والليل حلو .. والخمر كثير ، ومنديلي طار وجنيه طار ، جنيه من رزق العيال .. أخذته المرأة خلال الخمر الرخيص ودموع عين قرحها طول النواح وضربات موسيقى كلت يده ، تطرب سكارى معهم ثمن كل شيء ، ثمن الناس ، ثمن كلمات الحب الرخيصة تقولها امرأة سمينة تضطرب فى اهتزاز عند البار .. وصاحبتنا مقروحة العين تدير لسانها فى فمها كأنه أرجوحة وتبكى وتقول :

— أتسمعها .. لا أستطيع أن أقول هـذا الكلام ، وأنا لا أعرفك فلماذا تعطيني النقود لماذا تريد أن ترقأ دمعى .. أنت وغـد ..

ثم تبكى .. والجرسون يحوم ، يعرفها ، ابنة ليل قديمة منذ زمن ، وكانت حلوة ، وكانت تخرب البيوت واليوم تطفح المأساة عند السطح وصراخ لها مع المغنى فى شيء كالعواء وينام الأمن بعيدا ويبقى الخواء .. ويدى تهتز حين تمسك الكأس . وأنت تدور بعينك الكبيرة فى المكان وتهمس كمن يخاف ..

ـــ قم بنا .. هيا اعطها ما تشاء .. فقط قم بنا من هنا ..
ياللذكاء •• أخاف ذاك الذكاء •• وأرفع الكأس أجرعها لأذيب فيها الذكاء ، وكالأبله المأفون تنداح عند عينى دموع وتقطر مأساتها فى قلبى ، ويخفق وجيبه كالأنين .. وتقول :

ـــ أنا لا أعرفك .. كيف أرد الجميل .. أتسهر معى .. ؟

يا لبؤس الكلمات ..

شفتان عاهرتان أكلهما الزمان ، وعين مقروحة وجسد هزيل والخمر دارت برأسها ورأس الزمان الا رأسك الذكى ما زال يعتدل .. ويهمس فى خوف :

ـــ قم بنا .

وأقول :

ـــ لا يا أخت الشقاء .. ولن تعرفينى .. ولن أراك .. طريقانا مختلفان مررنا من هنا ذات ليلة وجمعنا كأس حزين .. ثم نفترق ولا لقاء ، بلا ثمن ، بلا شيء ..

وتصرخ :

ـــ ولكنك تحسن أأنا متسولة ؟ .. كنت زمان ..

وتبكى .

ـــ كنت أعيش ، طفت العالم كله ، دمشق وبيروت وصيدا واللاذقية وحلب والمغرب ومرسيليا زرتها ..

وتنشج ...

ـــ ونقودى كنت أرسلها الى الأطفال الصغار ، أولادى . أمى أبى ، وكبروا .. وحين أقعدنى الزمان قالوا يا عاهرة .. انت ساقطة ، من يعرفك ..

وتهمس أنت كالفحيح ..

ـــ لنخرج ..

وأرفع كأسا مليئة كأنها لا تفرغ وأروح فى دوامات ، وأذكر العيال .. أولادى .. وأبى الذى نسيت أن أزوره منذ شهور . وحادثة كادت تطير بصديق الى عالم المجهول ، وأخى الصغير حملوه على أكتافهم الى القبر الصغير .. وأشرب ، ويأتى صوتها :

ـــ كنت زمان حلوة ، أرقص وأغنى وأمثل ، وجئت بامرأة بجنيه قالت انها أمى ، وبصمت ثم خرجت من البلد أجمع المال وأرسله لمن أصبحوا رجالا .. من كدى غدوا رجالا ..

من عرق جسدى كله .. ثم ..

ثم تقول أنت فى اصرار :

ـــ لنخرج ، أعطها ولنخرج ..

أكل الخمر ذكائى فدخل كلامها قلبى كله ، مزقه ، قتله ، أدماه .. ومنذ لحظات كانت تجلس عند البار تصخب فى سعار ..

وكنت تقول .. أجل أنت قلت :

ـــ هذه سوقية مزقت وقار البار ..

وعند البار مثلك كانوا أذكياء ، سمين فى وجهه وقار ، وامرأة ، ومراهق ، ورجل رفيع فى وجهه شارب كث ، وشابان يجرعان الخمر فى سهوم .. وتركتهم ، هربت من حديث الذكاء ، وعبث الخمر ، ومضت ، فى يدها كأس ومضت ، الى المنضـــدة التى تجاورنا ، ثم جلست مع الرجل الوقور الى جواره امرأة ملأت وجهها بالأصباغ ، وجسدها ملىء ، وعند يده اليمنى عازف قديم تاه مع الزمان ، يغنى الآهات ثمن لقيمات وزاد قليل والخمـر تمزق صدره ، والسهر يأكل كل أمل له فى غد المغنين .. والمرأة السمينة تهمس معه أغنية ، تقولها كالفحيح وصاحبها ملول .. يجول .. بعينيه يجول .. وجلست هى عندهم صاخبة فى يدها كأسها وصوتها يضحك فى انفعال ، ضحك الحافة الذى ليس بعده الا السقوط ..

وكنت تقول لى عن ابسن صاحب سيد البنائين ، كنت تحكى لى عن بيت الدمية ورغم الكأس وخمره الوفير كنت تقـول ، فوق البار ، فوق الصخب ، فوق ضربات العود ، فوق حكايات المخمورين ..

ــــ الكتاب يتحدث عن فن المسرحية ، أورد فصلا عن ابسن ..

وقلت وصوتها الضاحك فى صراخ يطرق أذنى وعينى عند وجهها الشاحب المسكين ..

ــــ لابد أن ندرس الأدب الشعبى ..

وعدت أنت تقول ..

ــــ وابسن ــــ كما لعلك تعلم ــــ أستاذ ، خطير . والفصل يشرح هذا ويبينه ويضع النقط على الحروف ..

وشربت كأسى ، وناديت الساقى ، وجاء ..

ــــ الحياة هادئة لا شىء فيها ، كل شىء يسير فى وقع رتيب، هكذا يبدأ ابسن حين يرفع الستار ، تحس سير الحياة الهادىء الأليف ..

وانثالت من فمها المتقلص ضحكة مريضة متشنجة ، ولم تكن تزين وجهها بمساحيق ، ولكن المساحيق الكثيرة التى ملأته عبر السنين أكلته ، وتركته كتلا شوهاء من لحم أسود فى لون التراب .. وأقبل الساقى فى يده الكأس وعلى شفتيه بسمة معتذرة بلهاء ..

ــــ كانت تحبه فزورت امضاء أبيها على صك نقود لتنقذه

وهو مريض .. وعرف الصراف ولكنه لم يتكلم ، فقط احتفظ بالصك وأعطاها النقود ..

وكان المغنى يحتضن عوده ويرتكز عليه وفكه يتحرك فى اتئاد ، يلوك بحساب شيئا فيه ، والمرأة الحلوة المربربة الصانعة الماهرة وضعت على وجهها المساحيق وهى تقول فى صوت طريف :

ـــ وتغنى مع الكورس مثلا .. ثم تظهر فى دور فى أوبريت، أو مشهد غنائى ، ثم تتطور وتصبح شيئا كبيرا ، أقل منك بكثير وصلوا ، فقط سافر الى بيروت .. أعرف واحدا كان فى فرقتنا يمسك الرق ، هو الآن فى بيروت يركب الباكار .. فقط تبدأ السلم من أوله .. أليس كذلك يا نونو .. ؟؟

ونونو هو الرجل الكبير السمين ، ينظر فى وقار ولا يرى.. أمامه امرأة والى جواره رجل يغنى ، وعند مائدته كأس ، وعند طرف المائدة حطام يضحك ويبكى ولا يرى .. ونظر الى ثم رفع كأسه الى شفتيه فى وقار ، ومضى فى صمته الغريب ..

ـــ وكانت تعيش سعيدة فى بيتها ، زوجها يحبها ، يدللها ، وهو لا يعرف سرها الكبير سر الصك المزور ، ودارت الأيام ..

ودارت المائدة بى دورة ، ثم دورة ، واستندت الى حافة المقعد ، واستقرت العمد أمامى تماما ثم وقفت ومشيت أسير ..

وتجنبت المقعد البارز ، ومر أمام عينى شارب الرجـل الرفيع ووجه الجرسون ، والمرأة عند البار . ووجه ، وستار ، وخربر ماء .. واستندت بيدى الى جدار وأصوات الطريق تأتى الى ، صليل ترام ، وصوت سيارات ونداءات غريبة .. ثم أحسست بالراحة تنبع من أظافر قدمى داخل الحذاء وتتسلل صـاعدة خطوة خطوة الى رأسى .. وخرجت وبدا البار أمامى كله وأنت هناك فى ركننا ترقب كأسك فى فتور ، وعلى بعد خطوات منك امرأة أنيقة غاضبة وصاحب العود يقف فى اعتزاز والمرأة الضائعة تجلس فى احتراز ، وتردد حشرجات عالية الصوت بائسة الرنين، والرجل الكبير السن يقف فى كبرياء والجرسون يحمل معطفه ويقربه من يديه ، والمرأة التى كانت عند البار تفتح فمها فى ذهول وعند عينيها حزن .. وقفز الى رأسى همسها للرجل السمين منذ لحظات ..

ــــ اعطها ربع جنيه .. ليس معها نقود ..

وكانت عيناها عند الضائعة ، والأخرى لا ترى ، كأسها قد خلا وامتلأ ثم خلا ، ولسانها يلوك أى كلام ، والعود كان ساعتها يصخب .. أما الآن فصاحبه ينحنى ، فى اعتذار ينحنى ، والمرأة الضائعة تقف .. وتقول للرجل السمين ..

ــــ ألم تقل لك صفية شيئا ..

ولم يرد .. لوى شفتيه فى احتقار ومد يده الى جيبه وأخرج شيئا وقال :

ـــ خذى ..

وعند الوجه سواد كالوصمة .. وفى العين حيرة .. وفى اليد اهتزاز .. ثم قالت :

ـــ ولكنها لم تقل لك شلنا ..

ـــ هذا ما عندى ..

كالقدر .. كقاض فى منصة عالية ..

ومدت يدها له بالورقة الصغيرة .. وتقلصت شــفتاه فى احتقار ، وقامت المرأة الأنيقة وهى تمصمص شفتيها فى تعجب وتغمز بحاجبها المزوق وتهز أردافها الثقال، وأخذ الورقة ووضعها فى جيبه وهو يقول :

ـــ ليس معى فكة .. لا يعجبك الشلن .. بلاش ..

وأعطاها ظهره والحسناء الأنيقة المربربة تتبعــه ، وصاحب العود ما يزال يقف فى انحناء والضائعة جلست ، والمرأة عنــد البار أشاحت بوجهها ومدت يدها الى كأسها .. وأنا أسير الى مكانى فى فتور .. وقد بدا قلبى يدق فى وجيب وقلت لك :

ـــ ماذا حدث ؟ ..

ـــ زورت أمضاء أبيها وهى تحسب أنها تنقذ بهــذا حياة زوجها وأنها لا ترتكب اثما فهى تسدد الدين من مصروفها هى ..

ـــ من .. ؟

ـــ بطلة ابسن ..

ـــ انما أنا أعنى ماذا حدث هنا ؟.

وأشرت الى البائسة .. ورأتنى وأنا أنظر اليها .. وأدارت أصابع معروقة حول كأسها وهى تنظر الى نظرة وحش جريح :

ـــ أبدا شاءت هذه المهزولة الضامرة العجوز أن تغنى مع المغنى صاحب العود ، وأقسم لك ان صوتها لكريه ..

ورأيتها أنت تنظر اليك .. فهبط صوتك هامسا :

ـــ قم بنا .. لقد رأتنى أحدثك عنها .. لقد صاحت فيها الأخرى أن تكف فلما لم تصمت قامت هى والرجل السمين وأسمعتها كلمات قاسية ..

وعند عينى المرأة تعبير مبهم وحشى غريب .. وقالت بصوت كالفحيح وهى ترفع رأسها الى أعلى المكان :

ـــ أهكذا الأيام يا رب .. جنيه واحد .. ولا أجده .. والكلب كان زمان يقبل قدمى .. سمن الكلب وامتلأ .. والعفنة كانت تنظر الى وكأننى أميرة ..

وجاء الجرسون يقول :

ـــ الست صفية طلبت لك هذه الكأس ..

ووضع الكأس وكأنما يعتذر لها ، كأنما يقول لها انهاانسانة، انها موجودة ، والتقت عينى بعينيه ، كان فيهما أسى وحب وشيء غريب .. وأشرت اليه فأقبل ، وقلت :

ــ كأسان جديدتان ..

وسمعتك تهمس فى خوف :

ــ كفى شربا .. لقد شربنا كثيرا ، كفى الليلة ..

ولكن الساقى مضى .. وأنت تتمتم : وكأنما لتصرفنى عنها وعن البار ..

ــ أكمل لك حكاية ابسن ..

وقلت كالغائب :

ــ ابسن من ؟

ــ صاحب بيت الدمية ..

وهى تنظر الى . وعينى تطيل فيها النظر . ويدها تتقلص على علبة السجائر وترفع الكأس تجرعها وكأن ما بها مرارة ، كأن ما بها سم كأنه الحنظل ..

ــ وعين زوجها مديرا للبنك ، ومضت ترقص . فقد شملتها السعادة والليلة عيد الميلاد وغدا يتسلم زوجها العمل وتنتهى مشاكلها المالية ويتدعم مركزها الاجتماعى ..

واندفعت دموع الى عينيها ، دموع قلقة حائرة ، ووضعت الكأس وكأنها لا ترى ، وصاحب العود اختفى من البار كله ، والمرأة عند البار تخفى رأسها فى كأس ، اسمها صفية وفى قلبها رحمة ، واشترت لها كأسا ..

ــ وترقص ، فهى دمية محبوبة كما قلت لك ، زوجها يحبها ، وأولادها يحبونها وهى تحب الحياة وتقبل على الحياة..

واندفعت الدموع الى عينيها بقوة ، وانثالت فوق خديها ، ووضعت يدى فى جيبى ، فى جيب البنطلون نقود ، وأخرجت الجنيه من بين ورق قليل وأمسكت به وملأ العرق رقبتى ، وعينى على عينيها الباكيتين وأذنى لك وأنت تحكى :

ــ ثم يقبل الرجل ..

وقلت وأنا لا أحول عينى عن دمعات فى العين المقرحة تحيطها هالات سوداء والدمعة تنزل فى سكون واليد تتشنج فوق الكأس وعرق ينداح رغم البرد :

ــ أى رجل ؟ ..

ــ الصراف ..

وأخرجت الجنيه ، أخفيته فى راحتى المبلولة ، ووضعت يدى الأخرى فى جيب « الجاكيت » وأخرجت منديلى الحريرى..

كان هدية من أمى ، وارتفع صوت مخمور عند البار يضحك فى صخب ، وكأنما حنجرته كلها ضحك ، ثم لم يعد هناك الا صوت الهمس وبكاء مكتوم ، واقتربت يدى ، وثوى الجنيه داخل المنديل .. وانتظرت وقلبى يخفق ..

ـــ ويطلب منها أن تؤثر على زوجها لكى يبقيه فى البنك لأنه ينوى أن يطرده والا فسيعلن جريمتها .. سيقول للعالم انها مزورة ، ويرغم زوجها أن يبقيه مكانه بتهديده بالفضيحة ..

وبدأت الدموع تنفجر من عينيها ، واستجمعت شجاعتى ، وجرعت من الكأس خمرا لها رائحة نفاذة وقلت :

ـــ منديل ..

ومددت يدى . ونظرت الى وفى عينيها دهشة . وأمسكت أنت بساعدى ، ولكنى قمت وفى يدى المنديل وفيه الجنيه وامتدت يدها المعروقة وأخذت المنديل واهتزت ساقى من تحتى وجلست ، وقلت لك :

ـــ احك ..

وجاء صوتك راعدا ..

ـــ ماذا فعلت ؟ . ما لنا بها ؟ . قم بنا من هنا ..

ثم جاء صوتها أجش باهتا :

ــ منديل وجنيه ..

وجاء نحيبها كالانفجار .. وجف العرق عند رقبتى ، وجف كل شيء حولى .. وجرعت الكأس وصحت كالمجنون :

ــ خمر يا ثابت .. خمر وفيرة

وجاء الجرسون ، ووقف لحظات ، ورفعت رأسها وقالت لى وهى تنظر فى انكسار ..

ــ أشكرك يا سعادة « البيه » ، لو سمحت أقعد معاكم ..

وهمست أنت كالمرتعب :

ــ لا .. لا تدعها ..

وقلت أنا وقد جف حلقى تماما ..

ــ تفضلى ..

وحمل الساقى كأسها الينا وجاءت بأحزانها وبكائها ، ويدها تعبث بمنديلى وتقول :

ــ جنيه كثير يا « بيه » .. وأنا كنت عايزة ٢٥ قرش بس ..

ــ هات خمرا يا ثابت ..

ــ ثلاث كئوس يا بك ..

ــ قم بنا وكفى جنونا ، تعطيها جنيها ؟

ـــ أنا أشكرك ، أنا المريضة الغلبانة ..

ـــ أين ذكاؤك ؟ انها استغفلتك ..

وكانت قبيحة جدا ، ونظرت الى وجهها المعروق وملأ الأسى قلبى ، وأحسست بحنق على كل شيء ..

ـــأين ذكاؤك ؟ أتعطيها جنيها ؟ .. لقــد سكرت .. مؤكد سكرت .. قم بنا ..

ـــ الخمر يا « بك » .. والصودا ..

وفى عينيه فهم ورحمة وحب ، وهى راحت فى صمت غريب، وأنت قدماك تؤلمانك ، تحركهما كثيرا تحت المنضدة ، وأمــام عينى صورة ابنتى الصغيرة باسمة فى عينيها البريئتين قبلة حب.. ودخل البار غريبان ونظرا يمينا وشمالا ثم جلسا هناك فى الناحية الأخرى وقلت لك :

ـــ أكمل الحكاية ..

وقالت هى :

ـــ آسفة .. قطعت عليكما الكلام .. أقوم .

وقلت وأنا أنظر الى عينيك الحانقتين ووجهك الشاحب :

ـــ لا ، انه يحكى حكاية دمية ..

ـــ أبدا الحكاية قد انتهت .. لقــد رفض زوجها وساطتها وقررت الانتحار ، ثم تدخلت صــديقة لتقنع الصراف بالحب ألا يدمر البيت ..

وقالت الضائعة وسط الحياة :

ـــ نعم الحب .. انه الحياة .. بالحب تقنع الدنيــا كلها أن تحبك ..

ـــ ثم ..

فعدت تقول :

ـــ ثم .. أى ثم ؟ لقد اكتشفت أنها لا تعرف الحيــاة ، فحين زال عنها الخطر أحست بالزيف الذى تعيش فيه ولذلك صارحت زوجها بالحقيقة ..

ـــ تمام .. الصراحة شىء عظيم .. لابد من الصراحة ..

وكان صوتها فيه انتعاش .. فيه صحو .. وفى عينيها شىء جديد كأنها طفلة رغم السنين ، وحكايتها على وجهها رغم بقايا أصباغ وجسد مهزول ..

ـــ وثار زوجها وهو لا يعرف أن الخطر قد زال وتنكر لحبها خوف الفضيحة ..

وانتهت الحكاية ..

وصاحت :

ـــ كيف تنتهى أهذا رجل ؟ . كل الرجال غدارون . أنا صرفت دم قلبى على اخوتى الرجال وتركونى حين تعلموا ، حين اغتنوا ، وقالوا روحى أنت عاهرة .. أنت عديمة الشرف .. أنا عديمة الشرف ؟ . الكلاب ..

وقلت مهدئا :

ـــ تلك قصة يحكيها صاحبنا ..

وصاحت :

ـــ بل هى حقيقة ، كل الرجال كلاب .. وأنت لماذا تعطينى النقود ؟ أتحسبنى متسولة ؟ أتظن أنك اشتريتنى بنقودك ؟ أنا جائعة ولكنى سأدفع ثمن الفقر ، قم بنا ان كان عندك مكان ..

وتحركت أمعائى .. وأصابتنى قدمك عند كعبى تماما ..

ـــ عفوا ولكن أحدا لم يطلب شيئا و ..

ـــ ألم تقل الحكاية .. لا شىء بالمحبة كل شىء بثمن ..

ـــ لم نكن نقصد ..

وقلت أنت :

ـــ انها حكاية عن ابسن ..

ـــ ابسن هذا خاين .. وكل الرجال خاينين ..

ثم انفجرت تبكى .. وجعلت أحسو كأسى فى بطء ، وأنت ذاهل ، والبار ساكن لايعلو فيه صوت ، وجعلت أهمس وسط دموعها :

ـــ لماذا تبكين .. ؟ ان الدنيا بخير والقلوب كلها تعرف الحب ..

ـــ ولكن كيف أرد لك مالك ؟

ـــ مالى .. انه مالك .. أنا حزين ومعى نقود لا ترد عن قلبى الحزن ، والنقود ترد عن قلبك الأسى فتفرحين فأفرح والدنيا بخير .. كأس جديدة ..

ومسحت دموعها بمنديلى .. وقلت أنت :

ـــ قم بنا .. كفاية ..

وقالت هى :

ـــ اذن من أنت ؟ أريد أن أعرفك ..

وجاء صوتك حادا :

ـــ هو ؟ ألا تعرفين ؟ . غبى .. أحد الأغبياء ..

نعم فقدت ذكائى .. ذات ليلة .. ذات كأس .. ذات جنيه ..

وقلت :

ـ لا يا آخت الشـقاء .. ولن تعرفينى .. ولن أراك .. طريقانا مختلفان .. مررنا من هنا ذات ليـلة .. وجمعنا كأس حزين .. ثم نفترق ولا لقاء .. بلا ثمن .. بلا شىء ..

وعندما وقفت دار البار أمامى دورات قبـل أن يستقر ؛ ودفعت الحساب ، وسندتنى أنت وهى تمرح عند المائدة وتضج بالساقى صاخبة :

ـ شواء .. شواء يا ثابت ..

وكنت أهتز وصوتك عند أنفى :

ـ أهكذا تضحك عليك ؟ . مومس عجوز أين ذكاؤك ؟ .

ضاع .. وما أجمل أن نضيع ، أنا وأنت وباقى الرفاق عبيد لحظة يغيب فيها الذكاء لنعرف .. لنحس ، لنعيش .. عفوا فأنا سكران ، والبيت يأتى الى من بعيد ، والسيارة تدور فى الطريق ، وأنا بداخلها أهتز ، ووجه قبيح ، ويد معروقة .. وضحكة صاخبة، ثم بكاء حزين ..

يا .. أنتَ ..!

عزة .. حبى .. عفوا ..

١٩٦٧

لم أطوف بالبحار السبعة ، ولم أجس خلال مدينة من مدن الضباب ، ولم أنزلق فوق جبل من جبال الثلج .. أبدا ، أدور خلال الشوارع الكئيبة لمدينتى التى لا تتغير ، ان أنار فيها طريق أظلمت طرقات ، وان قامت فيها مئذنة جديدة تهدم أكثر من منزل ، ومالت طوابقها كفم لعجوز أهتم ضاعت أسنانه مع ما ضاع من عمره وتبقت شواهدها رمزا لأيام باقيات تأخذ طريقها الى الضياع ..

وأنا .. من أنا .. كما كنت أكون .. وكما ضعت أضيع .. تتسرب الأيام بين أصابعى لتغوص فى رمال الزمن كأنها ما كانت، أشباح باهتات من ذكريات غامضة تبقى ، كأنما هى أشياء حدثت منذ سنين عديدة لانسان آخر فى عالم بعيد حجبه الضباب

وطاردته ضجة الشوارع المزدحمة فتاه ، وأبدا لن يبين ولن يعود..

أنت شيء كاذب ككل ما عبر على وجه الأرض ، ككل ما مر دون أن يبقى منه شيء حتى ولا صراخ الألم ، ولا أنات الاحتضار، ولا عفن الجسد .. والأرض الصلبة لا تترك لأظافرك أن تغوص فيها ، فقط تكسرها ، تدمرها ، تدميها ثم تمتص الدماء كما امتصت ألف نهر من دم لتعيش هى وتذهب أنت وأنت ..

ماذا انك تئن على الورق .. بالأمس رأيت الكتاب ، كتابك، كان فوق كل الكتب ، وحين مددت يدى الى صفحاته الباهتة الممزقة ذاب ، تحول ترابا ، تفككت أوراقه الى شيء كالهباء .. أبدا لم تمر عليه ألف عام ولا ألف شهر ، ولكن أحاطه العفن ، فى الحجرة التى لا ترى النور ولا الهواء ، أكله الصمت حوله ، والسكون الذى يحوطه وان كل شيء يزول ..

ماذا انك تئن على الورق .. بالأمس رأيت ذاك الصديق الذى من عليه انسان فأطلقه ، اختفى شعر رأسه ، واختفت أسنانه وانطفأ بريق كان يلمع فى عينيه .. خمسة عشر عاما أضاعتها جنيهات جمعها لامرأة وطفلين قيل لرجلهم أنت خطير ومكانك قبر لا تموت فيه ولا تحيا .. وحين رأيته رأيت العفن والصمت قد أضاعا شعر رأسه وأضاعا أسنانا خمسة ، ودمرا النور فى عينيه .

ماذا أنك تئن على الورق ..

يا ويلتا .. كم أود أن أراك .. يا ويلتا .. كم أود أن أرى السمرة على وجهك تنشر السلام والدفء ، والنظرة فى عينيك تقول ان الحيـــاة حقيقة وان الوجود أصـل وان الضحكة العريضة حين تملأ الوجه الأسمر تهز الوجود والكون والعدم .

ياويلتا .. أضعت أنا البريق من عينيك حين أبكيتهما كل ليلة، والوسادة تمتص الدموع ، والجسد يأكل نفسه بلا أمل ولا رى ، والفحولة أكلها الزمن ، وأنت تمتصين الفراغ ، تلوكينه بلا أمل..

يا ويلتا .. رسمت أحزانى فوق السمرة سورا كئيبا حزينا مر الطعم ضـائع المذاق حـين قلت اننى الكون ، اننى الأول والآخر ، اننى الزمان والمكان ، اننى الوجود والعدم ، وأضاعنى العدم ، وسرق الزمان أيام العمر ، وأكل الناس حصاد العنـاء فبؤت بالصمم ، صمتا ، اسمع صمتا ، أقـول صـمتا تهمس أنفاسى لعجز محتضر ، وضاعت السمرة يوم ضاع آخر الأمل ، وأكله الناس فذاب واختلط بالطين والصديد وخضرة مريضة باهتة ، وأصبحت السمرة صماء كما العدم ، كما أنا ..

يا ويلتا ، الضحكة ماتت فوق الشفاه الوردية ، وتيبست غصونها ، تهاوت ذابلة والأوراق اسودت وانهزم الألق فيهـا وبهت اللون الوضىء ، دون دمعة حزن ، دون وداع صديق ، دون كلمة حب ترثى الأمل المتهاوى تحت الأقدام ، تحت الأحزان، تحت الخيبة ، تحت الضياع ، الضحكة ماتت ، عتمة العينين

اختبأت خلف دمعتين وتحجرت الدمعات حين غاض النبع الثر ثم تفتتت ترابا يعود الى تراب ، وصمتا يحيطه الصمت الأزلى العميق ..

يا ويلتاه يا حلوة ، أيامك أنا أكلتها ، أنا أضعتها ، أنا هزمت الأمل فيها حين أحببتك ، حين ضيعتك ، فما أنا الا الضياع ..

لم أركب ملاحا فوق سفينة ، فسفينتى بلا شراع ولا مجداف، تاهت فى بحر الصمت ، وسارت دون ملاح ، ربانها أعمى لم يركب البحر قط ، لم يمسك المجداف قط . اصطدمت قبعته بالشرفات المائلة ، وارتطم خطافه بالأرصفة المتآكلة ، وحين رمى شبكته فى قاع البحر العميق حملت له مسمارا صدئا وندفا من قطن مبتل وبقايا سيجارة ..

لم أركض فارسا فوق جواد ، حين وضعت قدمى فى الركاب وقعت ، وحين جردت سيفى نزف قلبى دما ، وحين لكزت جوادى بكعبى غاص فى الرمال ، ألف عمق فى باطن الرمال ، تملأ عينى ، تملأ فمى .. تملأ أنفى .. والرمال ثقيلة باهتة مصمتة ، لا تعرف الرائحة ولا اللون ولا الطعم .. وحين فتحت فمى لأصيح فى منازلى بالسيف ، امتلأ قلبى بالرمال ، حملته ريح عطنة باردة وملأت به جوفى وحلقى وأسنانى وشفتى ..

لم أصرخ خطيبا فوق منبر ، الجدران صدمت صوتى فردته

الى صدرى ، وظل يجوس فى جسدى حتى أثقل قدمى وشدهما الى التراب .. وحين لوحت بيدى اصطدمت أصابعى بخيط من خيوط العنكبوت ، التفت حول يدى ، حول ساعدى ، حول منكبى .. ثم دارت بى ولعنتنى وتسللت الى فمى فأغلقته ، نامت فيه ، امتصت لعابه فجف ، وعند اللهاث نسجت نفسها سورا دون الكلمات ، دون الحروف ، دون الهمس .. وحين ضربت المنبر بيدى تمزقت يدى أشلاء ، ضاع كل اصبع فى اتجاه .. طار فى الهواء واستقر فى فم غراب .. ألف غراب تقاسمت أصابعى وعظام كفى وجلد يدى ..

كضوء يشع فى ظلمة قبر .. كنسمة تهب فى جوف حوت .. تطل بسمتك .. قديمة قدم الوجود الحلو .. عريقة عراقة الحياة الباقية .. أصيلة أصالة الفكر الحر ..

وفى عالمى لا أعرف الحلاوة فقد يبس لسانى ، وفى عالمى لا أعرف البقاء فقد ذابت نفسى ، وفى عالمى لا أعرف الحرية فقد تمزق قلبى ..

وأنت يا أنت ، أضعتك حين أحببتك ، حين غصت فى قلبك فاستمرت نبضاته تحس شيئا يموت فى ، فمات فى ، مات ، وضاعت نبضاته ..

حين دفعت أظافرى وأنيابى فى دمك أمتص رحيق الدم

الفوار بالشباب والحياة ، علها تعطى الجسد الذليل بعض حياة .. مات الجسد وتسربت دماؤك الى الرمال التى تشرب كل شيء ، لتبقى ساخرة منى ومن كل شيء ..

حين قفزت بين جفنيك أسرق النور اللامع الى عينى المطفأتين عل شيئا يبين أمامى فأراه .. ولم أر الا الهمود والظلام والعتام، وضاع سحر عينيك ..

يا أنت .. يا حلوة .. أضعتك حين أحببتك .. حين صدقت أن الحب شيء يمنح الخلود والبقاء ، حين صدقت كلام الشعراء ، حين صدقت أن قلبى كقلوب الناس يضج بالحب ويعرف الصدق ، ويعنى الحياة ..

ومن أنا ؟ ضائع بلا دليل .. أمت دليلى حين عشته .. حين نفذت فى جلده .. حين أكلت لحمه يوم الجوع العظيم .. حين أطفأت ظمأ قاتلا شريرا بأنفاسه اللاهثة .. ضاع هو وضعت أنا ..

يا ويلتنا .. يا حلوة .. ماذا أعطيك ..

حفنة من رمال .. بقايا من تراب .. صفحات ضائعة أكلها العفن فعدت أشلاء تبعثرها هبات مريضة لريح عفنة آسنة ، لم تشهد شمسا تنورها ، لم تشهد قمرا يهدهدها ..

ملاح بلا سفينة ..

الدودة

اصلى دودة ثم كبرت

دب العفن الى كتفى .. بدأ كالنقطة الصغيرة ثم كبر وكبر حتى ملأ كل كتفى .. وتصاعدت روائح غريبة آلمنى أول الأمر أن تملأ الهواء الذى ينفذ الى رئتى ، وتمر بغدد الشم فى أنفى . ثم اعتدته ، ولم أعد أضجر من رائحته ، رائحته الزيت .. ثم انقلب لون العفن من اللون الأصفر الى اللون الأسود ، كان سوادا قاتما متربا يتخلله بياض مريض .. وحين كنت أنظر بعينى الى كتفى فتنحرف مقلتاى انحرافا كبيرا جدا ، كان يخيل لى اننى أنظر الى قمة جبل ساعة غروب .. وأشعة الشمس المتهالكة تعكس فوقه ظل سحابة كبيرة رهيبة .. والجبل كان هناك على كتفى .. فقاعات كفقاعات الصابون .. ولكنها سوداء ..

وذات صباح انشق كتفى .. بدأت الشقوق تظهر صغيرة ضئيلة ثم تتسع وتتسع ، ومن خلالها خرجت دودة ، دودة واحدة خرجت من كتفى من الشق الكبير ، وأطلت برأسها على حذر ثم ارتفع رأسها يجر وراءه جسدا هزيلا لزجا يتلوى ويتلوى كأنما

يرقص .. وانبعثت الى أذنى موسيقى ألف ساحر هندى تملأ رأسى ، وترقص الدودة الثعبان .. الكوبرا ..

كيف كبرت الدودة فغدت ثعبانا غليظ الجسد ، قاتم اللون، فاغر الفم ؟ . ومتى ؟ . وأين .. ؟ ..

وكنت أرفع رأسى اليه والثعبان يعلو ويعلو .. ومن عينيه يخرج لهيب نار .. ومن بين شفتيه يخـرج فحيح كالدوار .. ولسانه المشقوق يمتد ويمتد ، ولمس رأسى .. لسان الثعبان لمس رأسى وهو ينظر الى بعينين محمرتين كالجمر ..

وأكل الثعبان عينى اليمنى .. هبط برأسه فجأة فالتقمها ، وسمعت صوتها وهى تتحطم بين فكيه ، ولم أعد أرى بها .. كأنها لم توجد من قبل ، تركت وراءها فراغا والتأم الجرح دون أن أحس ، فقط أصبحت لا أرى سوى نصف الأشياء .. من كل شىء لا أرى الا جانبا واحدا .. وعاد صوت الثعبان فى فحيح مخيف ، ورفعت عينى لأرى رأسه يهبط نحوى ، نصف رأسه ، ونصف لسانه ..

ثم مس لسانه أذنى اليسرى ، وأكلها الثعبان .. ولم أحس بالألم فقد كان فى رأسى صداع . ولم أسمع لتحطمها بين فكيه صوتا فقــد كنت أفكر فى مسألة هــامة وهى كيف خلق الله الوجود ؟ .

كيف خلق الوجود ؟ . ومتى ؟ ولم ؟ .. وحين انتهيت من التفكير كان الثعبان قد أكل أذنى اليسرى من زمان .. وأصبحت لا أرى الا نصف الأشياء .. ولا أسمع الا نصف الأصوات ..

وفتحت فمى لأسب الثعبان ، لأستعطفه ، لأصلى له .. فانقض الثعبان داخل فمى وأكل لسانى .. ولم يخرج من فمى حين تحدثت سوى فحيح كفحيح الثعبان .. ، وساعتها عرفت سر فحيحه فهو بلا لسان .. أما هذا الذى يتدلى من فمه فهو مصيدة يلتقط بها ما يشاء ، ويحمله الى فكيه الرهيبتين ، ثم يقضمه .. وحين أردت أن آكل لم أحس لأى شىء طعما .. كان الطعام يدخل من بين شفتى لينزلق الى حلقى دون طعم ودون مذاق ..

وكان قلبى ينفجر من الغيظ ، ولكن عقلى المتزن الهادى قال له :

ـــ لقد ترك لك عينا ، وترك لك أذنا .. ألا يكفيك هذا .. ؟

وكان صوت الفحيح مخيفا ، ارتجفت له عضلات قلبى فانكمش ثم انكمش وهو يهتز فى رعب وقد اقتنع ..

وأحسست أن كتفى يرتفع والثعبان يتمطى فى سعادة وراحة، وانخفض كتفى الآخر ، وأخذت عضلات ظهرى تؤلمنى فى شدة، بينما انداحت حبات العرق تسير فوق جلدى ، وأحسها وهى تسير وكأنها هامة لحوح استمرأت عجزى ، وأعجبها طعم دمى ..

وعطست ، واهتز جسدى فى قوة .. وفجأة أحسست بألم حاد يخترق عظامى كلها ، وتهشم شيء فى وجهى ثم ملأ أذنى الوحيدة صوت تحطم شيء بين عضلات فكى الثعبان ، وحين خف الألم قليلا عرفت ما حدث ، لقد قضم الثعبان أنفى وأكله وغدا وجهى بلا أنف ..

وتحرك قلبى فى مكانه بقلق فأوجعتنى قدمى ، فقد كان قلبى عند اصبعى الأكبر من قدمى اليسرى ، وارتفع صوت عقلى الوقور يقول له :

ـــ وما حاجتك الى الأنف ، لقد كان يعوق حركتك ويضايقك ثم ان أنفك شكله منفر ، ووجهك بلا أنف أكثر جمالا وأشد أناقة وهو أدل على انسانيتك ..

ولم يجب قلبى ، وانما جعل يهتز بشدة ومعه ساقى كلها حتى الظفر . وضاع أنفى دون أن تنزف منه قطرة من دم .. نعم ففى كل ما أكل الثعبان لم تنزف قطرة من دم ..

وأصبحت لا أرى الا نصف الأشياء ولا أسمع الا نصف الأصوات ولا أعرف طعم شيء ، ولا رائحة شيء ..

واشتد ارتفاع كتفى اذ ازداد جسد الثعبان طولا ، وكان يدور رأسه فيتحول جسدى كله مع الرأس الذى لا يكف عن الفحيح ، ويهتز كتفى ثم يعلو .. وأحس بعضلاتى تئن تحت

ضغط الالتواء العنيف اذ يرتفع كتفى بينما يهبط كتفى الآخر فى استسلام ..

ويصبح العرق باردا كالثلج لزجا كالزيت ، وحين التفت بعينى الوحيدة رأيت كتفى فى حذاء رأسى تماما ، وأخذت أبحث عن كتفى الأخرى فلم أجدها .. استوت مع جسدى ، ودخلت فى ضلوعى ولم يعد لها وجود ..

وكان رأسى صغيرا وكانت رقبتى قصيرة ، ولم أكن أستطيع أن ألفت رأسى الى أى اتجاه فقد تصلبت عضلات رقبتى بينما كان يدور برأسه فى انطلاق ، دورات لا تهدأ ، ورقبته الطويلة ذات العضلات الملفوفة واللون الترابى تدور وتتلوى وترقص ، وعادت موسيقى ألف ساحر هندى تملأ كل طاقات السمع فى أذنى الوحيدة ..

وصرخ عقلى فى غضب وخوف :

— أين أنت أيها القلب الخائر الجبان .. ؟ أين انزويت تاركا اياى وحدى .. ؟

ولكن قلبى لم يرد .. فلم يعد فى مكانه عند اصبعى الأكبر لقدمى اليسرى ، بل استطاعت عينى الوحيدة أن تراه وهو يتسلل فى استكانة عند ذيل الثعبان .. وأتى صوت دقاته الخافتة المذعورة كطرقات يد طفل فوق طبل أجوف ، ثم رأته عينى وهو

يسير صاعدا الى أعلى ، وسمعته أذنى الوحيدة وهو يدق فى هدوء وثبات .. ثم استقر .. فى مكان القلب استقر .. وقد ازدادت دقاته قوة ووضوحا وثقة ..

وصرخ عقلى العجوز المريض فى ضعف أليم :

— الخائن ..

ثم أصبح صوته صراخا عنيفا صاخبا باكيا وهو يجهش :

— الخائن .. الخائن ..

وأحسست برأس الثعبان يدور ويدور فى عنف وغضب ، ثم يستقر فوقى ، فوق رأسى تماما . وحاولت أن أقول لعقلى أن يهدأ ، أن يخفض صوته ، أن يصمت .. واندلع لهيب فى أذنى الوحيدة ولم أعد أسمع شيئا فقد اخترق لسان الثعبان رأسى ، والتف حول عقلى يحاول انتزاعه من مكانه فى عنف .. ولكن عقلى تشبث بجمجمتى ورفض فى يأس أن يتحرك ، وكان عقلى يبكى وان لم أكن أسمعه .. فقد فقدت السمع تماما ..

وحين حاول الثعبان أن يخرج لسانه من رأسى اصطدم بجوانب جمجمتى فتصدعت .. وخرج لسان الثعبان .. ثم أمسك شىء برأسى ، شىء كالحديد . كالعنف . كالغضب . كالموت .. وأحسست بلسان الثعبان يدور فى شعرى فى هدوء وبطء وتثاقل .. وحاولت عينى الوحيدة أن ترى ، ولكن كل شىء كان

غائما .. فقط عيناه كالجمر .. كلسان من لهيب وفتح فكيه ثم هبط وهبط ، واحتوى رأسى بين فكيه .. وانطبق فكاه مكان أذنى الذاهبتين وتحسس لسانه مكان أنفى الذى راح ..

ولم أعد أرى شيئا .. فقد أطبق على ظلام قاس رهيب ..

وأحسست بفكيه عند عنقى .. فوق تفاحة آدم ، عند منبت العنق تماما .. ثم انطبقا ، وتمزق كل شىء ..

ثم أخذت أتمايل كلى .. وأرقص وحـولى موسيقى ألف ساحر هندى ..

وكان قلبى يخفـق فى عنف وأنا أتمـايل مترنحا فى رقص يشملنى كلى ، ذرة ذرة ..

أصلى دودة ثم كبرت .. ! ..

أناشيد طيبة

خبأها كاهن ناحية الهرم ..

١٩٦١

يابنات طيبة .. هل رأيتن حبيبى

حلو كالطهر حبيبى ، قدماه من جوهر البحر المتألق ، شفتاه نور بلا لهب ، عيناه فيروزتان والشعر ألق ..

ياعذارى طيبة .. الم يمر عليكن حبيبى

كان هنا وفى كل مكان .. كان هنا وفى كل زمان .. حبيبى الوجود منذ الأزل ، البقاء منذ القدم .. حبيبى لا يعرف العدم ..

ألم ترين حبيبى

جبهته الوضاحة الشماء ترتفع وترتفع حتى تبلغ أعلى سماء .. سماء ثم سماء .. سبع سماوات تطاولهن جبهة حبيبى .. فوق السحاب وفوق النجوم وقرب الشمس ذات اللهيب ..

حبيبى يقتـات من نور ذكاء .. حبيبى لا تحرقه نارها .. حبيبى يعرف سرها ..

وأنتن تعرفن حبيبى

شعره من نور الشمس سبائك مجدولة معقودة تشع الحياة والحنين والحب .. سبائك مزهوة تقتل الليل .. تهتك الظلام .. تميت العدم ..

أقسمت عليكن بايزيس يا عذارى طيبة ، أما رأيتن حبيبى ؟

صدره مرمر أبيض ، صاف كنور القمر .. حى نابض .. يموج بحكايات الحب والوجود .. أجمل من الجمال أن نعرف الحب .. وصدر حبيبى منبع الحب .. مصدر الحنان ، صـدر حبيبى حب وحنان ...

عند كل عرس يقف حبيبى ... فى كل بهجة يهل حبيبى :

همس المحبين حبيبى .. نجوى فؤادين حبيبى .. نظرة حذرة حنون يتبادلها قلبان بريئان حبيبى ..

لا تنصرفن عنى يا عذارى .. بحق ايزيس المعذبة الحائرة.. بحق ايزيس الوفية المحبة ، بحق ايزيس لا تنفرن منى ..فجرس ضحكاتكن الطلقة المليئة بالأمل الدافقة بحنان واعد ، الدافئة بآمال حب .. بعض من حبيبى ..

أما مكن أمرغ وجهى بالتراب .. وأحثو الرمال فوق رأسى..
ثم أبكى ..

أمامكن أذيب القلب حسرات .. أسكب أنفاسى صــلاة ..
أسفح دمعى قرابين ..

أما رأت احداكن حبيبى ..

عند حافة الخالد العريق .. نيلنا الجارى كالأزل .. نيلنـا
المقدس كآتون ، أقف رافعة يدى اليكن يا عذارى ..

يامن لمس ماؤه الهامس أقدامكن
يامن غسل موجه الهادىء أرديتكن
يا عذارى طيبة ... يا خالدات

من فوق هذا النهر مر جسد أوزوريس بكن .. أما رأيتن
حبيبى . ؟

مزقا مزقا مر جسد أوزوريس ..

وفى البدء كان أوزوريس فاخضرت الأرض وهفا النسيم
بأغصان الورود ..

ومنذ البدء كان أوزوريس فضجت الدنيا حيــاة وماجت
الأرض منى ..

يا باميلس .. قال الصوت ..

وخاف الفتى الفلاح وارتعب .. ورفع بصره الحـديد من فوق الفأس وتلفت ..

يا باميلس .. قال الصوت ..

وانسل من قلبه خوف كان يملؤه .. خوف عميق كان يكمن عميقا .. عميقا فى داخل قلبه ، انسل الخـوف خارجا ودخلت نسمات الهواء ..

يا باميلس .. عاد الصوت من جديد ..

وفيه رحمة .. فيه حب .. « موال » ينشده صـوت رائق كخرير ماء النهر .. للمرة الثالثة ينادى .. والفتى ترك فأسه .. رفع رأسه .. أرهف أذنه .. فتح قلبه ..

وقال الصوت ..

— لا تخف يا باميلس ..فالخوف قد مات .. وانما اترك فأسك . واذهب عدوا الى طيبة .. قل لأهل المدينة لقد ولد اليوم أوزوريس رب الأرض كلها ، ولد أوزوريس ملأ الأرض كلها ..

من يومها يا بنات والصوت ملء المدينة . الصوت يجوس خلال المدينة . يرقص للظلال فتزول . ويهمس للأشباح فتختفى. ويرفع يده فى وجه الظلام فاذا هو نور ..

من يومها حبيبى فى كل قلب .. فى كل صدر .. حبيبى فى كل مكان ..

ياعذارى طيبة بحق ايزيس .. أما رأيتن حبيبى ..

حين جاء اوزوريس ذات مساء جميل الى أرض طيبة ، جلس هنا عند هذه الصخرة يغسل النيل قدميه .. ورفع رأسه المهيب الى الشمس التى أخذت تغيب ، ثم هب واقفا مرفوع الذراعين الى القرص المنير فى شحوب وهو يصيح :

ـــ حييت يا رع .. يا رب السماء ..

ثم جلس .. عند حافة النيل جلس .. بجوار طيبة .. وعند ذراعه اليمنى وقفت ايزيس ، وأخرج من صدره نايه ، ومضى يعـــزف ..

من يومها ولدت الموسيقى فى وادينا .. عذبة كنسمة الصيف المعبقة بروائح البرسيم وأزهار البرتقـــال .. صـــاخبة كصراخ الريح فى ليالى ديسمبر .. ساخنة كلفحات الخماسين فى أرض الصعيد ، باردة كالرعشة تبعثها ليالى طوبة فى المساء .. هادئة كالنهر يهمس سر الخلود .. صاخبة كهديره عند شلالات النوبة يصفع الصخور تقف فى عرض الطريق ..

وغنت ايزيس مع موسيقى الناى ..

وطاف الصوت من منبع النيل الى مصبه فى البحر الكبير ..

تغلغل الصوت الى ذرات رمال الوادى فاستكن بها واصفرت شوقا ورقة وحنانا .. استقر الصوت فى كل قطرة ماء تمر بطيبة فاحمرت حياة وخصبا وأملا حلوا متفتحا .. غاص الصوت فى طمى أرضنا وطينها الطيب فاهتز بسحر الحب وضم ذراته على معنى الانطلاق والامتـداد بلا حـدود كصوت ايزيس وناى أوزوريس ..

ووادينا من يومها يغنى .. يغنى بلا حدود .. بلا سدود .. بلا أسى .. فمن حبيبى يولد الحب .. وتتفتح الحياة وتخصب الأرض ويفيض النيل ..

مرحى يا رع الرحيم .. مرحى أيهـا القرص الملتهب بالحرارة والدفء والنور ..

أما أظلت أشعتك حبيبى ..

يوما كان ملأ العيون حبيبى ..

يوما كان أمل القلوب حبيبى ..

يوما كان حبيبى ..

ثم جاء تيفون .

جاء تيفون فنام القمر .. تيفون كتفاه تغطيان وجه الحياة .. كتفاه عريضتان قطعة واحدة .. صدره بلا أضلاع وليس فيه

قلب .. لا نأمة لا صوت .. فليس فيه قلب . لا ضوء ولا نور .. تاه من داخله القلب ..

تيفون أنفه صارى سفينة ، مثل شراع قارب حتشبسوت عائدا من بلاد الند والصندل .. تيفون وجهه بلا ملامح . بلا معالم ، ليس فيه الا عيون ، عيون تيفون كثيرة ولكنها لا ترى .. لأن عيون تيفون ليس فيها الا السواد ..

وفى ظلام الليل الدامس فح تيفون كالأفعى ذات الأجراس، وماجت دنيا الظلال بفحيحه وأخذت أمواج من سواد تزحف الى قلب طيبة ..

وفى سكون العدم مد تيفون ذراعه .. أسود كلون الليل ، صامتا كيد القدر .. رهيبا كزبان عقرب .. مد تيفون ذراعه .. ثم لدغ ..

آه ياعذارى طيبة .. ياسمراوات النيل ..

حبيبى كان هنا فى قلبى .. وقلبى اليوم مزق .. فجسد حبيبى فى أرض طيبة مزق .. وأين يا بنات مزق قلبى ؟ . أما رأيتن حبيبى ؟ .

دخل أوزوريس التابوت وعند شفتيه ضحكة حب صاخبة كالحياة والوجود ، كالأمل .. كحبيبى .

وأغلق تيفون التابوت .. دق المسامير . سد بالشمع المذاب

فقراته ، وعند شفتيه صمت كالموت . كالبشاعة . كالدمامة .. كقلبى بلا حبيبى ..

من يومها يا عذارى طيبة لم أر حبيبى ..

سألت عن حبيبى كل حبة فى كل سنبلة قمح بوادينا الخالد .. وأطرقت السنابل ثم ذوت وماتت ..

ذهبت الى النوارة البيضاء . متفتحة كقلب نقى . وهمست لها قائلة : يا نوارة ، أما رأيت حبيبى ؟ وأطرقت النوارة وسكتت .. واقتربت منها .. عل عندها سر حبيبى .. فرأيت اصبعا سوداء لزجة تنثنى فى قلبها الأبيض .. وانحنت النوارة ثم سقطت بلا حياة . والموت الأسود يتلوى فوقها ..

رحت زاحفة فى الصحراء الى حارس الوادى العريق ، سر الأسرار ، وقدس الأقداس وركعت أمام أبى الهول الصامت الحكيم .. وقلت له ، يا أبا الهول يا من ترقب كل يوم الدنيا من مربضك .. وتختزن فى قلبك كل سر .. أخبرنى بحق خلودك بحق عظمتك .. بحق هذا الوادى تقف فى قلبه .. أين راح حبيبى ؟ .

وكأنما فتحت أبواب الجحيم .. خرجت ألسنة اللهب تطوف بى .. تمس شعرى .. تلفح وجنتى .. ومن دنيا الظلام كان نشيد الموت يعزف ووسطه صوت مهيب يرتل فى ضراعة الأبالسة

يا تيفون يا حامى وادينا .. تيفون أنت أوزوريس .. تيفون أنت حورس .. تيفون أنت ايزيس . تيفون تضاءلت قوى رع الى جوار حكمتك ..

ومات قلبى .. رفعت رأسى الى أبى الهول .. كان أنفه قد طار وعند عينيه فراغ ، وعند الساقين سلاسل من حـديد .. وشفتاه كفتحة لحد انتهكه اللصوص .. الدالفون فى أعراض الموتى ..

وهرعت أجرى يا بنات ... من الصحراء هناك .. أجـرى اليكن .. أمرغ وجهى عند أقدامكن .. أسفح دمعى بلا ثمن ..

قولوا يا بنات طيبة .. هل مات حبيبى ؟

حلو كالطهر حبيبى.. قدماه من جوهر البحـر المتألق .. شفتاه نور بلا لهب .. عيناه فيروزتان والشعر ألق ..

يا عذارى طيبة .. أنتن لا تنطقن ..

أتفتحن أفواهكن .. ماذا .. ماذا .؟ بالله أغلقنها ، أطبقن الشفاه .. أخفين عنى هذا العار ..

اذن لقد مات حبيبى ...

الطاعون

وانقلبت سيارة بكامى فمات ..

١٩٦٨

وخرجت معها الى الشارع عاريين .. ومع كل خطوة تخطوها كانت عيون الناس تنجذب نحونا .. ويدور الهمس .. وأحتار فى يدى أين أخفيها .. بينما ترفع هى يدها الى فمها تخفى شفتيها .. ونمشى سويا فى هدوء وكأن شيئا لا يحدث حولنا . والكلمات الجوفاء تقال فى اصرار واستغراق فتصل ما بيننا ، ونهز رأسينا فى جدية ، وتشرد عيوننا فى تأمل وتفكير .. ونسير ..

وعند منعطف الطريق حاصرتنا العيون ، ولكن نهديها قالتا.. لا يهم .. وانفرجت شفتاها عن آهة هادئة مريحة وأسبلت جفنيها .. وتراجعت العيون وأفسحت لنا طريقا بينها .

ومست رموش عينها كتفى الأيمن فجرحته .. وسال دم قليل، وانسابت نقطة فوق ذراعى ، واستقرت عند رسغى . ثم جفت..

وبعدها جف كل شيء .. العيـون جفت ، والكلمات جفت ، واللمسات جفت .. ولم يعد يضايقنا شيء ..

قطرات الدم ما أروعها ، ما أحنها ، ما أبلغها .. قامت ثم نامت فوق الخد وانحنت عند الذراع ثم استقرت عند الرسغ وجفت.. وفهم الناس وابتعدوا .. افسحوا الطريق للقادمين .. لا سيارة.: لا عربة .. لا حصان .. لا ترام .. لا شيء .. ومضينا وحيدين .

وارتسمت سحابة شاحبة عند قمة الأفق حولها اطار من نور متوهج ومن خلفها أشعة تموت فى صمت .. وخف هواء الغروب والتمعت نسماته كالأفكار الحزينة ثم انطفأت ، وماتت ، وسكن الهـواء ..

واحتبست الكلمات عند حلقينا .. وأكلت الكلمات نفسها فوق شفتينا ، وأطرقت عيوننا فى صمت ونحن نمضى وحيدين عاريين وسط الغابة .. صوت الزئير مات عند قدمينا ، وهدير الأغصان تلوكه رياح عاتية انحنت وأفسحت لنا الطريق ثم رقدت ساكنة لا تريم عندما مست جسدينا .. والفحيح الملتاث يجوب الغابة فى جنون ، عقله الصمت فجف ويبس وتهاوى مزقا شوهاء هشة تدوسها أقدامنا العارية .. يدها فى يدى وثديها عند كتفى ونقطة باردة من عرق تقف عند حاجبى لا تريم ..

ومدت يدها تلمس كتفى ، وانساب شلال نور أمامى يحجب

الظلام ، ويختفى الظلال ، ويحيى فى قلبى وجيبا مات .. ومددت يدى فاحتضنت كفها ،ونظرت فى عينيها فسجد قلبى وانتظم وجيبه فى تسبيحات .. ووقفت هادئا أنظر الى البحيرة العميقة.. فى عينها الرانية فى سكون .. والموج مات والألق هو الكون ، وزهر الياسمين يعبق نغم الحياة .. وشددتها بيدى لنمضى فقد كنت أخاف من الزحام ، ومن الناس ، ومن الطريق ..

وانفرجت شفتاها .. ولمع شعاع القمر ، وتأوه صدر الليل ثم أن .. وترك الياسمين مكانه لرائحة حريفة حلوة ، كان القرنفل يملأ كل شيء .. السماء والأرض والناس والحيــاة .. عيونهم زهر قرنفل داكن ، وشفاههم زهر قرنفل قان ، ووجوههم زهر قرنفل أصفر .. ومن الغابة خرج صوت رتيب لا لون له .. دقات طبول هادئة .. لها صوت أجوف ووقعها يدق الأذن فى اصرار .. ويدها تضغط كفى فى عنف ، وعند عينيها لهيب نار ..

ومر الصوت الغريب بنا مسرعا كريح عفنة تجتاح كل شيء ، ووقفنا ملتصقين .. كأنما أجراس عربات الاسعاف اللعينة تدق الأرض الصلبة فى وقع رتيب تنشر حولها ظلال الخوف والموت..

وبعد أن مر الصوت ومضى نظــرت فى عينيها حيث كان اللهيب ، ولكنى لم أجده ، لا أعرف أين راح .. ونظرت داخل نفسى ، كان الثلج يحتل قلبى ويحوط شرايين الدم التى يبست

وسكنت حركة الدماء فيها اذ انزوت دمائى تبحث عن مخبأ يحميها حتى مر الصوت الغريب ..

وفى عيوننا حين التقت كان خواء .. وتشابكت أذرعنا فى همود ثم عدنا نمضى متعثرين وحدنا فى الطريق الخالى الا من صدى الصوت ، وقطرات ذعر ، وهمسات أنين ، وعويل مكتوم..

وزحف صرصار من ركن فى جدار ، ورقص حول نفسه فى فتور ثم انقلب وأقدامه تضرب الهواء فى ضعف ، ضربات ضعيفة هامدة ، ثم تسكن ، وتعود لتضرب الهواء من جديد .. ثم سكون ..

منذ جاء الصوت توسد الخوف حينا ، منذ أمس مد أياديه العديدة الملوثة بالدم والصديد تلمس رقابنا ، وتتضخم، وتتورم، وتمتلىء .. ثم تختنق رقابنا ، تحجب عنها الأورام نسمات الهواء .. وتتهاوى .. واحدا اثر الآخر .. كأوراق خريف فى يوم عاصف حزين .. كلعبة فى يدى صبى يحطمها لأنه يرضاها ، يمزقها لأنه يحبها .. يرطم أجزاءها بأجزائها لأنه صبى ، لأنه لا يعرف ، لأنه يريد أن يعرف .. لأن الحياة لغز .. لأننا نسير .. وحدنا نسير ، يحيط بنا همس كالفحيح .. دخان يؤذن بالنار تأكل كل شىء .. ونحن لا شىء .. لا صوت ، لا حياة . لا وجود . لا سير على الطريق .. لا وقع للخطى فوق الأرض المرصوفة . مات العدم ..

ومددت يدى الى يدها ، كانت مبتلة .. ورفعت عينى الى رقبتها ، كانت متضخمة .. وعند العين نظرة ذعر رهيبة وعند الشفتين صدى شيء احترق وتفحم وتيبست بقاياه ..

ومددت يدى ألمس الكتف العارى . لم يعد عاريا ، كان هناك دثار .. من زعانف خشنة حادة تجرح اليد وتحطم الأظافر.. وهمست :

ـــ رقبتك .. انظر العقد عند ساقيك ..

ولم أتكلم .. كان شيء يتضخم فى قلبى .. شيء كالحجر المدبب . كل جسمه أطراف مدببة حادة تلسع صدرى .. تلسع ضلوعى .. تلسع أنفاسى .. قلبى يتضخم .. يتحول الى عقدة كبيرة هائلة تحجب عنى الرؤية .. تقتل من أمامى نسمات الهواء .. تذيب خطوى فاذا هو جمود ..

قالت فى رعب : انظر العقد عند ابطيك ..

لم أرد .. كان لسانى ثقيلا لا أستطيع أن أحركه .. أن أرفعه بعيدا عن قلبى ، التصق بقلبى واستراح فنام ..

وصاح صائح فى أول الطريق :

ـــ الطاعون ..

وارتفعت الأصوات .. ألف جرس لعربة اسعاف .. ألف بوق

لحافلة مليئة تهتز ، ألف صرخة لجموع هادرة مذعورة تجـرى وتجرى .. يبتلعها ظلام مخيف ممتـد .. يأكل كل شيء .. كل انسان .. كل عربة .. كل قمر ..

ــ الفئران ..

وجاء صوتها كالفحيح الدامع :

ــ انظر العقد عند أنفك ..

وكنت أنحنى .. العقد فى مخى ثقيلة ، ألف طن أو يزيد .. صخرة ضخمة شكلها عجوز أكله الزمن كأنها مسلة بلا رأس .. وحاولت أن أرفع رأسى ولكن مخى كان قد التصق بلسانى .. يدور .. يدور يرسم فوقه دوائر من نار ينحتها نحتا كأنه يكتب بلغة سحيقة قديمة منسية ..

ونظرت فى عينها .. كان خواء .. كان فراغ .. كان صمت..

وحولى لم أعد أرى شيئا لا السماء ولا الأشجار ولا الناس، فقط أقداما تجرى .. تلهث أعياء من الجرى .. أقداما تنتعـل أحذية قديمة مخروقة ممزقة ، وأقداما عارية مشققة أكلها لهيب الأرض المحروق ، وشوه جلدها الصلد كأنما كواه بأسياخ محماة فنزف منه الدم واختلط بالصديد وامتلأ بأورام غريبة متضخمة .

وحين تحدثت لم أسمع صوتها .. وكانت الى جـوارى ..

وجهها قد استطال ودق ولحمها قد تيبس وأربد ، وجسدها قد ضمر وانكمش ..

وصاح صائح بصوت كأنه دوى الرعد فى يوم عاصف :

ـــ الفأر .. الفأر ..

والتقت عينانا فى ذعر ..

ثم صاح صائح كهدير موج فى محيط غاضب :

ـــ الفأرة .. الفأرة ..

وعادت أنظارنا تلتقى .. ثم سكتنا ..

كنا وحدنا فى الشارع عاريين .. وحولنا يدور همس .. لا يدى أراها فأخفيها .. ولا يدها تطول فمها فتخفيه ..

ومن كل مكان .. من الأرض .. من الحائط .. من السماء .. كان الصوت يقول :

الطاعون .. الطاعون ..

ومن كل شىء .. من الشجر .. من الانسان .. من كلاب الأرض ، من صخر الطريق كانت الأحجار تنهال فوقنا ، فوق جسدينا العاريين .. وانفجر شىء فيها وانطفأ بريق عينها . وانطفأ شىء فى .. ثم همد ..

القرصان والتنين

حكاية قديمة فى سيرة منسية ..

١٩٦٥

نزل القرصان على المدينة ..

لا يدرى أحد كيف جاء ولا من أين جاء ..

نزل القرصان يحمل سيفه ، صقيلا مهيبا ينذر بالهول والدمار .. ذات ليلة سوداء لم يطلع لها قمر نزل القرصان صامتا كالقدر ، وعند الصباح هدر فارتجفت المدينة واهتزت ثم استقرت فى سكون كالعدم ، ترقب بعيون بلا أحداق سيفه القرصان ينشر ظله فوق السحاب ، فوق السماء .. فوق الضياء .. فمن يومها لم تعرف المدينة الا الظلام ..

أجراس الكنائس والمنشدون فى الصوامع ، والهادرون فى الأسواق ، والصبية يدقون الطبول ، صمتوا جميعا وسكتوا بلا حديث ، وقفت الكلمات عند اللهات ، وأكل السكون رنين الحروف ، وركع الصوت عند باب المدينة .. ثم مات .. ودخل المدينة موكب الصمت الحزين ..

القرط يتدلى من أذنه الكبيرة ، ورأس القرصان تلفه عصابة حمراء ، وأنفه المعقوف يبص كالمنقار ، وعند صدغه ندبة ، اثم ليلة ولغ فيها دم عذراء كان لها خنجر ، وماتت بنفس الخنجر . شق القرصان صدرها ليعرف كيف تقول لا رغم القيود فى اليدين والقيود فى الرجلين والعين المسسولة والأذن المقطوعة واللسان المنزوع .. ورأى القلب الدامى ينبض فى فتور فانتزعه بالخنجر .. خنجرها ، ولاكه بين أنيابه السود .. ووحده كان يصخب فوق جثة العذراء ، أودعت صدغه هذه الندبة بالخنجر الصغير ثم راحت الا من آثار تبين ، عند صدغ الوحش تبين ..

وصاح القرصان :

ـــ أنا جوعان ..

وتلفت الناس بعضهم الى بعض فى وجوم .. وهز القرصان سيفه العريض فأبرقت السماء واهتزت الأرض ، وهرع أهل المدينة يحملون السلال ، مليئة بخيرات المدينة ، وامتدت مخالب القرصان تفرغ السلال فى جوفه ، وامتدت قدمه تودع أهل المدينة بالركلات ، وهو يصخب يضحك كالعواء الصفيق .. وعاد يصيح والنار تلمع فى عينيه ..

ـــ أهذا طعام .؟

وانحنى العجائز من أهل المدينة يزحفون ، وعند أقدامه

سجدوا وهم يتمتمون ، ورفع القرصان سيفه فوق الرءوس، فاهتزت الأقدام الواهنة ، وأخذ القوم يتصايحون :

ـــ لبيك يا كبير ، يا عظيم ، يا قرصان .. كلنا ومالنا فداك، ولكنه التنين ..

واهتز القرط الذى يتدلى من أذنه الكبيرة ، وملأ الندبة لون قان كأنه الدم . وكشر القرصان عن أسنانه السوداء وهو يهدر فى دهشة :

ـــ أى تنين .. ؟

وعاد العجائز من أهل المدينة يسجدون ويتمتمون وهم يتصايحون :

ـــ لبيك يا كبير . يا عظيم . يا قرصان . انه التنين يرقد عند باب المدينة . له ألف ذراع يبتلع منا كل عام مائة ألف .. لكل ذراع مائة قربان له حتى يعيش ، ولا يغضب على مدينتنا الطيبة ..

وقهقه القرصان كالسخرية بالقوم الطيبين . وضرب بيده الضخمة على ركبته . وزأر من صدره العريض ..

ـــ مائة ألف كل عام ؟ .. وكيف أعيش أنا ؟ ..

ونفخ صدره العريض ولوح سيفه الصقيل وهو يزأر فى هدير :

ـــ سأقتله .. أنا سأقتل التنين .. وغدا موعدى مع هــذا اللص الغريب .. يا لكم من ضعفاء .. أتتركون الحيوان يأكلكم؟ أنا الكبير . أنا العظيم أنا القرصان سأقتله .. أنا .. أنا .. أنا أقتله ..

وانحنى العجائز فى خشوع ، وتمتموا فى ذلة ، دعوا له بالنصر المؤزر . ثم عادوا الى بيوتهم زاحفين يهمسون فى وجل بقوة القرصان ووعده الأكيد ..

ومضى النهار الغريب ، النسوة يحجبن الوجوه ، والصبية يرقبون عند الغدير ، والعجائز يتهامسون بالنذير ، والشمس تأكل ظهر المدينة .. والجرذان وحدها تبص من الشقوق ..

وعند الصباح خرج الرجال الجــوف يدقون الطبــول . وينفخون الأبواق أمام القرصان ، يسير كالفيل الكبير ، فى اليد سيفه وعلى اليــد الأخرى ترسه الحديد ، والقرط مع النغــم الرتيب يهتز فى كبرياء ، ومنديله الأحمر الكبير تبين منه خصلات مجدولة كأنها الثعابين وأنفه المعقوف كالمنقار ، كالمخلب .. ككلمة أنا .. يصيح بها مع دقات الطبول :

ـــ أنا الكبير .. أنا العظيم .. أنا القرصان .. أنا أقتل لكم التنين .. أنا .. أنا .. والرجال الجوف يدقون مع صوته الجهير الطبول .. وينفخون الأبواق .. ودقات طبولهــم فى المدينــة

كالصمت الكثيف .. وأصوات أبواقهم كالسكون العريض .. فالمدينة ترقب فى انتظار ووسط سمائها الشمس تقف منذ مطلع النهار .. أشعتها كالنار .. والعجائز يتهامسون :

ـــ خرج الرجال الجوف ..

ـــ نعرفهم منذ الزمان .. يحملون الضحايا للتنين ..

ـــ نعرفهم منذ المكان .. عند حافة المدينة يقودون سفينة القرصان الى الميناء ..

ـــ نعرفهم يدقون الطبول .. ينفخون الأبواق ..

ـــ خرج الرجال الجوف ..

وعند باب المدينة وقف الرجال الجوف يدقون وينفخون ، فى اصرار ، فى اخلاص ، فى حسية .. وتقدم القرصان كالأسطورة يفتل شاربه العريض ويرفع سيفه الصقيل ويهز درعه الحديد ، والنار فى عينيه تلوح ، والندبة وسط الصدغ من خنجر عذراء صغيرة تشهد بالبطولة .. ورنح أعطافه دق الطبول . ونفخ أوداجه عزف الأبواق . والصحراء خالية الا من سيفه وترسه وأنفه الطويل وصاح :

ـــ أنا الكبير .. أنا العظيم .. أنا القرصان .. أين أنت ياتنين ..

وصفق الرجال الجـوف .. وزاد ضربهم على الطبـول . وأجهدوا الرئات فى النفخ فى البوق :

ــ أنا يا تنين أتيت أنقذ المدينة من أن يأكلها حيوان .. أنا يا تنين الأزل أنا البقاء .. أنا القرصان ..

ونظر الى الوراء فركع العجـائز ساجدين .. وخـروا الى الأرض متمتمين .. ثم رفعوا أيديهم الواهنة اليه متضرعين :

ــ أنقذنا يا كبير .. أنقذنا يا عظيم .. أنقذنا يا قرصان ..

واهتز القرط فى الأذن الكبيرة ولوح بالسيف الصقيل يشق الهواء .. واندفع الرجال الجوف يدقون وينفخون ، وهو وحده يترك باب المدينة الى الأمام حيث التنين ، والشمس وسط السماء لا تريم ..

ومضى يرج الأرض بخطو ثقيل . ويلوح فى الفضاء بالسيف الصقيل ، والترس الحديد فى يده وعنـد الأذن قرط يدور ، وفوق الرأس عصابة حمراء وندبة عند الصـدغ وأنف يبص كالثعبان .. وفح التنين ..

ومن بعيد رآه ، كالهول رآه .. ألف ذراع .. لكل ذراع ألف مخلب ، وعينـاه جمـرتان من لهيب ، ومن فمـه فحيح كالدوار .. وفح التنين ..

حكايات تدور عن ألف مدينة أكلها التنين .. وألف قرصان

حرقهم بلفح نار تخرج من فمه .. حتى الأمل أكله التنين من أزمان .. عيناه يتلظى فيهما سعير ، ومن فمه أعاصير .. وفح التنين .. ثم قال :

ـــ أهـذا طعام ؟ أين الألوف .. ؟ أين القرابين ؟ .. أين الطعام ؟ . أين الرجال الجوف يحملون الدفوف ، يزفون قربان التنين .. أين العجائز يحرقون البخور أمام قربان التنين ؟ ..

واهتزت أقدام القرصان .. والشمس فوق رأسه . والسيف باخ فى يده والترس يهتز والندبة تلمع بلون كالدم ، وهمس :

ـــ مولاى التنين ، أهل المدينة غدارون خوانون ، بالأمس رأيتهم يتآمرون ، يقسمون ألا قرابين لمولاى التنين ، ولهذا جئت لك أسدى النصيحة .. ماذا لو اتفقنا ، أنت عند الباب وأنا داخل المدينة أسوقهم اليك بسيفى هذا وبدل مائة الألف ، أسوق لك ألف ألف ..

وفح التنين ، وثار الشرار ، واندلعت من فمه نار .. وقال :

ـــ أنا تنور على المدينة ، سأحطم هذه المدينة كما حطمت ألف مدينة ، ألغ فى دمها كى أعيش .. أنا جوعان . والمدينة لى حرم مباح . أما أنت فقد عرفتك ، قرصان ، كم رأيت أمثالك فى ألف مدينة ، أعطونى ألف ألف ، وأكلوا هم ألف ألف .. وضاعت المدينة .. أنا أريدها لى .. كلها لى .. أنا التنين لى ألف ذراع وبضربة من ذراع تصبح قطعة من الأرض ..

وفح التنين :

ـــ الويل لك .. الويل للمدينة ..

وفح التنين ..

وطار السيف الصقيل ، ووقع الترس الحديد .. على الرمال صارا كالعدم ، وأسرع القرصان يجرى والهول وراءه ، ألف ذراع تتسابق وراءه ، وأعصـــار كالنار يحرق جلـــده ، عويل مرير يدب فى القلب المرتعد . والعصابة الحمراء طارت والجدائل كالثعابين تدور حول رأسه ، وأنفه أمامه كيد الضرير ..

وفح التنين ..

الرجال الجوف أعادوا الطبول الى بطـــونهم .. ابتلعـــوا الأبواق . وهرولوا مسرعين ، طاروا قبل القرصان .. قبل النذير. قبل التنين .. وطبلهم يدوى فى بطونهم ، والأبواق تئن كالاعوال فى حلوقهم .. ولحظات واختفوا ، بلعتهم سراديب مظلمة باهتة لا يعرفها الا الرجال الجوف يوم النذير ..

وفح التنين ..

العجائز التصقوا بالأرض لا يتحركون .. يبست أيديهم .. يبست أقدامهم .. يبست حلوقهم .. يبست القلوب .. ومـــر القرصان من أمامهم لاهثا ، صارخا ، باكيا .. مر القرصـــان بلا سيف ولا ترس ولا عصابة .. مر يقـــوده أنف بلا عينين

والندبة عند الصدغ باهتة بلون الضياع باهتة كالعدم .. كاليأس المرير ..

وفح التنين ..

وأقبل التنين ، ألف ذراع رهيبة غاضبة .. لكل ذراع ألف ناب ، عيناه كالجمر تلتهب ، بالغضب تلتهب .. بالنار تلتهب.. ومن فمه يخرج شواظ يحرق كل شيء يدمر كل شيء ، التنين يقبل كالغضب .. كالسخط .. كالفنـاء .. ألف ذراع تضرب بالحقد الأسود .. بالغل الدفين .. بالسخط لا يعرف الرحمة .. بالجوع لا يعرف الشبع .. انه التنين ..

التنين جاء والمدينة وحدها .. الشمس تسطع وسط السماء تصب اللهب .. والجرذان دخلت الجحور فى رعب محموم .. والرجال الجوف لا أثر لهم .. والعجائز يبسوا عند الباب وجف وجودهم .. والقرصان عاريا يجرى وسط المدينة يهذى العويل.. يهذى الصراخ .. يهذى بلا صوت ولا كلمات ..

والمدينة والتنين ، ولا أحد ..

ونظر ناس المدينة الى التنين يقبل فى جنون .. يضـم بيتا كبيرا عند الباب .. ألف ذراع تحوطه .. تنزعه من الأرض .. تضيفه الى النار فى جوف العين ليلتهب جوفه بالوقود .. وفحيح التنين يأكل الصمت والأمن والحياة ..

وصرخ طفل وقال :

— أبى .. أبى .. أمى فى البيت المحترق ..

ثم سكت الطفل الصغير . وأمام فحيح التنين صمت عميق.. ومن فوق الأرض أمسك حجرا . واقترب .. ثم اقترب .. يده الطفلة تحمل الحجر .. وفى وجه التنين وقف ..

وصاح أهل المدينة وقال قائل :

— انقذوا الصغير ..

واندلع .. وكان جوف التنين يتلظى بنار جـديدة وقودها جسد الطفل الصغير ..

وفى عيون ناس المدينة كان لهب .. كان وعد .. كان عهد .. كان بقاء ..

وبلا كلمات انقض أهل المدينة على التنين .. آلف آلف عند كل ذراع ، يضمون الذراع ، يأكلون الذراع .. يشدون الذراع فى عنف اليأس الباسل .. فى قوة الحنق العميق ..

وألف ألف من ناس المدينة عند كل عين يطفئون لهيبهـا بأيديهم العارية .. بقلوبهم النابضة .. بعزم لا يلين ..

وفح التنين فى دهشة ..

والمدينة كلها تضج بالأصوات .. والشمس كالنار .. والريح

أعصار .. الأطفال أيديهم حديد .. والشباب قلوبهم جبـال .. والرجال عزمهم نار .. والنساء رفعن الحجاب يأكلن من صدر التنين .. ألف ألف عند كل مخلب .. ألف ألف عند كل ذراع ..

وفح التنين فى عذاب ..

الصمت مات .. أجراس الكنائس تدق فى اصرار .. وصيحات المدينة ثابتة لا يقر لها قرار والبيوت تضج تتحرك تمور .. تهدر بالنضال .. وأسنان المدينة تقطع التنين .. تمزق التنين تشد كل ذراع ، والعيون اللاهبة خبت ، والنار من جوف التنين تئن فى انبهار ، والشمس تغرق كل شىء فى لحن النهار ..

وفح التنين ثم مات ..

وانطلق الصوت ، كله حياة . المنشدون ترنمـوا فى كل صومعة ، والهادرون تجمعوا فى كل سوق ، والصبية يدقون الطبول .. والنسوة تعبت حلوقهن من الكلام ، وأجراس الكنائس تدق لحن انبهار .. والمدينة ترقص كألف غانية لعوب ..

وقفز القرصان .. فى يده سيفه الصقيل ، وفى اليد ترسـه الحديد ، وعلى رأسه العصابة الحمراء .. وفى أذنه يدور قرط وأمامه أنفه المعقوف .. قفز فوق جثة التنين وغمس سيفه فى دمه القانى المباح ، وصاح :

ـــ مرحى ناس المدينة يا عظماء .. يا كبار .. قتلتم التنين ..

والندبة باهتة بلون الشفق .. وصاح أهل المدينة .. قلوبهم عند الحناجر تحس لحظة انتصار .. والعجائز قاموا من عند الباب يتمتمون ، ومالت الشمس قليلا عن وسط السماء .. ولوح القرصان بسيفه فسكت أهل المدينة .. وعاد يغمس سيفه الصقيل فى دم التنين ويلوح به فى السماء وصاح :

— مرحى بالعجائز .. مرحى بالرجال الجوف .. يا عظماء .. يا كبار .. قتلنا التنين .

وسكتت المدينة واجمة . وبص الجرذان من الثقوب ووقف الرجال الجوف وأخرجوا طبولهم والأبواق .. وانحنى العجائز فى احترام .. ومالت الشمس الى قرب الغروب .. والندبة لونها أحمر والأنف له كبرياء .. ومد القرصان سيفه فى شموخ ولطخ حديه من دم التنين المباح ولوح به وصاح ..

— مرحى بالقرصان .. أنا الكبير .. أنا العظيم .. أنا القرصان .. أنا قتلت التنين ..

وركع الصوت عند باب المدينة .. ثم مات .. ودخل المدينة موكب الصمت الحزين .. وارتجفت المدينة واهتزت ثم استقرت فى سكون كالعدم .. ترقب بعيون بلا أحداق سيف القرصان ينشر ظله فوق السحاب .. فوق السماء .. فوق الضياء .. وانحنى العجائز من أهل المدينة يزحفون ويتمتمون ..

ـــ لبيك يا كبير .. لبيك يا عظيم .. لبيك يا قرصان ..

وأخذ الرجال الجوف يدقون الطبول وينفخون الأبواق أمام القرصان .. والجرذان زحفوا الى شوارع المدينة ..

والندبة بلون الدم .. ندبة أودعتها صادقة عـذراء راحت وتركت آثار خنجرها ذكرى ليلة مأتمها .. ليلة افترشها القرصان بلا يدين ولا رجلين ولا لسان ولا أذن ولا قلب ..

ورفع القرصان سيفه يحجب احتضار الشمس وهى تغيب وصاح :

ـــ أنا الكبير .. أنا العظيم .. أنا جوعان ..

الخوف

بالكلمة نعيش وبالكلمة نموت

١٩٦٨

حين اقتربت منها هربت .. تأودت وهربت .. وراء المقعد الكبير .. ورأيت ابتسامتها تملأ وجهها الأسمر كله وعند العين عبوس ضاحك ، واقتربت منها مرة أخرى .. وتأودت ولكنها لم تهرب .. ومددت يدى الى خصرها فتأودت ثم مالت .. وقبلتها ... وهمست ..

— أنصرف ..

وقبلتها ..

وعادت تهمس وهى تدفعنى برفق ..

— بل لا بد أن أنصرف ..

ولم أجدها .. كانت قد انصرفت ..

هل هى لا تريد .. أم أخطأت أنا الوقت المناسب ..

كثيرا ما تضيع منى أشياء كثيرة لأنى لا أعرف الطـريق المناسب اليها .. أم لعلها ضـاقت بالبرد .. بالحجرة الباردة ، بصورة رئيفة تملأ صدر الحجرة وتطل بعينها الواسعتين لتشاهد كل شيء ، وتسخر من كل شيء ..

أم لعلها كانت تريد .. ودلال الأنثى يملأ الطريق بالشوك والزلق ..

يا للعفن . شيء فيك يسج بالعفن ، يطل من وراء كل شيء ليهمس فى أذنك كالفحيح ..

الطين .. الطين ملء عينيك ، ملء عقلك ، ملء قلبك .. وأين الفرار من الطين ... وهو قدرك ..

هناك لحظات نفقد فيها السيطرة ، ويتحطم كل حاجز أقمناه بين الضعة وبين وجه الحياة ، فاذا بها سافرة بكل ما فيها ، صورة مزرية يبصق عليها كل من يمر فى ازدراء .. فمن هنا تمزق الستار وظهر وجه الممثل كما هو ، شيئا يزحف ، شيئا ينسج الخيوط الباهتة ، شيئا يمد شواربه يتحسس الطريق ...

والذبابة حين تسقط تصيح فتقتلع شباك العنكبوت .. أليس هناك ذباب لا يصيح ؟ . والعفن .. الا يعرف العلم اسم شيء يزيل رائحته ؟

والصدر اختنق ..

كل شيء يتحول ، يترك لونه ، يمرغ نفسه فى التراب ، يختنق ويموت .. كل الخيوط تتهاوى وينكشف العنكبوت وحده دون نسيج .. دون وقار ..

مرت وذهبت وتركت المرارة .. قطرة ، قطرة تمر من فمى الى حلقى الى صدرى فتلهبه ويحترق ..

ما أمر طعم العفن حين يملأ الشيب الفودين ، حين تنظر العين فى كلال ، ويهتز القلب فى قلق ، ويرتجف فى الصدر ألف صوت ينبعث من كل لحظة ، من كل حكاية مرت فى عمرك الطويل ..

حقا العمر طال ولا شيء ينسيك الليـــالى ، لا شيء الا الكأس ..

وقمت أبحث عن كأس لعل هناك بقايا فى زجاجة الأمس ، ان لم يكن قد سرقها خليل فهى هناك الى جوار صورة المرأة الذاهلة، تكور وجهها وتكورت ساقاها وتكور كل شيء فيها ، وحولها دخان أسود .. لست أعرف من أهدانى الصورة .. ولست أذكر متى ولا لم ؟ ..

وهل عدت أذكر شيئا .. أمس ، أول أمس ، اليوم الغابر .. وهل بقى لنا الا اليوم الذى ذهب ، الغد لم يعد موجودا ، ذهب، وذهبت الفتاة .. أعرف الآن ، الشيب فى رأسى أخافها .. فأنا

أمس الراحل البعيد ، أما هى ؛ فى عمر الورد كانت .. وكلهن فى عمر الورد ، كلهن يمضين كالورد .. وأنا باق كشوكة استعصت على كل ذبول ، وهل يعرف الشوك الذبول ؟ ..

ما أرق الفنان وأتعسه ، يحتوى العالم فى قلبه ، ولايجد فى العالم مكانا يحتويه ... قصة ، مسرحية ، رواية ، وأنا أكتب كالمجنون ، كالملتاث ، والحب فى قلبى يسع الدنيا كلها ، ومكان فى قلب عذراء حرام على لأن الشيب ملأ رأسى ، لأن السنين تجرى ، وأنا لا أستطيع ردها ، لأن الدرجة تتبعها علاوة ، والعلاوة تتبعها درجة ، لأن جيلا يخرج من تلاميذ يليه جيل ، والكل أبناء بل ولى احفاد !! .. وهن حلوات رغم انهن حفيدات.. يا للتعاسة ...

والكأس ملآنة ، وخليل ترك فى الزجاجة ثمالة تصلح ، انه رحيم .. تحية لخليل ملك المطبخ وملك الحياة .. وسقطت طائرة فى سيناء ، وأيامنا كانت كل طائراتنا تعود الى قواعدها سالمة .. أى طائرات ، (تنا) من ؟ (تنا) ؟ يا للعنة .. انها كانت طائرات الانجليز.. الزمن ، دار دورته ، درنا معه ، اشرب يا فتى فعزرائيل على الباب ..

ياه ، الباب بعيد ، ولا أحد يرد على الطارق ، وهو هناك وحده ، بل أنا هنا وحدى لا شىء حولى سوى الصور والكتب والقمر ..

أين القمر ، نفتح النافذة ، نطل على القمر والنيل ..

والنيل مات وهمد ، والقمر غاب واحترق ، وأنا والكأس والذكريات ، أنا عجوز ، نعم عجوز . الفتاة قالت هذا حين تركتك وذهبت .. هل تنسى .. ؟ وغدا تمسك الكتاب الضخم وتهتز فى المحاضرة وأنت تلوك كلام الأقدمين ، وتلوى لسانك بلغة الفرنجة ، وتهمس فى حنان شعر شكسبير .. ورأسك يملؤها دخان ألف سيجارة ومائة فنجان وكأس الليلة .. والعيال مبهورون ، وهن باهتات ، ولكن الزحف الأبيض لا تخفيه الصباغة ولا الثوب الأنيق ولا ربطة العنق والجورب يلمع .. ياتعيس ..

أنت للعلم تعيش ، مالك والشباب ، مالك والآه ، مالك والنبض الحائر .. ياصبى ، الكأس خلا فاملأه .. والليل طويل ، والقمر لا يبين .. ولسعات هواء الليل قارصة فأدخل من الشرفة وأغلق النافذة واستكن .. ثم املأ الكأس ..

والطرق عند الباب أسمعه . أهو عزرائيل ، لا ، هذا ليس طرقا ، انه خبطات ، خرفشة ، ماذا ؟ لعل أحدا هناك .. من يدرى؟ .. وماذا يهم ؟ .. يهم يا فتى أنك وحيد وأن الشقة واسعة ، وأن المكان بعيد ، لن يسمع أحد صباحك ، لن يسمع أحد . لماذا ؟ .. وهل هذا سؤال ؟ .. عجوز وحيد . لماذا ؟ .. لأنك عجوز وحيد. وهل نسيت ؟ .. أبدا لم أنس ، حنانها حبها ، شفتيها ، هل أنسى؟ عيناها واسعتان وشفتاها تنطقان بكلمة الحب وتذيب كل شيء

فى حنان .. ومضت هى الأخرى .. رئيفة .. حبها بلا نهاية ... بلا بداية أيضا ، فلا هى الأمس ، ولا هى اليوم .. ولا هى تريد أن تبعد عن رأسى وقلبى .. حبها قدر .. ككل حلو يذوب ، ذابت أيامها .. وككل حلو آخره مرارة ، مضت بلا عودة ، بلا وداع .. قالت : أنت لا تصلح لى ، حياتنا أصبحت لا تطاق .. ثم مضت .. وغدوت وحيدا ، أنا وخليل ، وطعام لا طعم له ، وكأس لا تفرغ ، وفراغ دائم مقيم ..

وعاد الطرق ، قلبى ينبض معه .. من أين يجىء ؟ .. من السقف أم من الجدار ؟ .. أم من رأسى ؟ .. من كل جزء فى صدرى المتعب المكدود ..

وقلت لها يا انعام أنت كابنتى .. قالت ولسانها الصغير يبرز من بين الشفتين الورديتين .. ليس لك بنات ، بل ليس لك أبناء على الاطلاق ، فمن أين أكون كابنتك ؟ أنت تقصينى عنك . ولوت عينا ومطت شفة ، وأكلت الكلمات وهى تهمس :

— ولكننى أحبك ..

وصدقتها .. كنت أريد أن أصدق العطر الذى يخرج من شفتيها ، العطر الدسم الحار ، كنت أريد أن أصدق الجسد الفائر المتأود كأنه نار ..

وقالت وتقول انك عجوز .. أنا العجوز .. أنا .. يا أنت ،

يا من عبرت .. رفقا بدمعة حائرة سالت دون أن تمر على عين .. رفقا بهوسة حائرة صرخت دون أن تمر على شفة .. رفقا باللهاث يخنق صدرى ، بدقات قلبى كالدوى تملأ أذنى ..

وعاد الدفء من جديد .. يهز جلدى كله ، الكأس تندفع الى جوفى ويدى هى التى تبرد ، ساقى .. جلدى كله يهتز فى ارتجاف .. الثلج ! . غزير .. غزير .. البرد يجتاح الأعماق . كيف يتحول الحب الى شىء نظيف ؟ .. والشعر الأبيض ملأ الفودين ، كل صبغات العالم لا تمنعه ، أبدا لا تخفيه ، بل تعلن عنه .. تقول هنا شعر تمرد رغم الدفء ، رغم الحنان ، رغم رائحة التفاح لا تريم .. تمرد وثار ، ثم هدأ فوق رأس رجل عجوز .. أنا ذاك العجوز ..

انك تملأ كل حائط ، كل اعلان ملون ، كل واجهة مضاءة .. والجمع يلتف ، الجمع يثرثر ، الجمع ينفض وشعرك أبيض .. أبيض .. لون الزئبق ، بل لون القطن ، بل لون ثلج الربيع .. وهل للربيع ثلج ؟ .. طبعا ثلج الكأس يا مأفون .. واملأ كأسى فقد فرغت ، وأكثر من الثلج فهو زاد لا ينفد ، بل يذوب كما أذوب . كما تذوب .. وفى الانجليزية التصريف لب اللغة ومفتاحها .. وخليل معه مفتاح .. خليل لا يخون ، أحد أغواه ، أبدا خليل لا يخون .. اذن هذا الدق من أين ؟ . ومن معه مفتاح يدق ؟ من معه مفتاح يدخل .. ولا أحد دخل .. فاهدأ يافتى .. بل ياعجوز

.. أواه منك ، كفى .. بل أنا فتى .. أنا وحدى يمكن أن أمسك سيفا ، أن أرفع ترسا ، أن أحمى قلعة ، أن أغزو قلب فتاة .. أى فتاة .. وأين الفتاة ؟ ..

فى الحائط ثقب يتسع ، أراه يتسع .. لا لا تخفيه ، من بين انفراجته يظهر الظلام الكثيف .. ظلام رهيب يكبر ويكبر .. والثغرة فى الحائط تتسع ، والدق عند الباب يرتفع ، وقلبى وجيبه يسرع .. والكأس فرغت .. سقطت على الأرض واندلقت ساعة ارتجفت يدك ، وجفت شفتك ، ومات الصوت عند حلقك .. والحائط يتسع ، دوائر من ظلام تلف كل شىء ، وتأكل كل شىء ، ورئيفة لا تسمع نداءك ، صوتك لا يخرج من لسانك نبضك يعلو فوق كل صراخ .. والباب انفتح ، وقع أقدام .. وقع أقدام .. وقع أقدام ... .!

العفن

ورائحة التفاح عفن

١٩٦٩

ـــ يكفينى أن أكون لحظة اشراق فى حياتك .. لحظة تومض ثم تنطفىء .

كأس وراء كأس وفى عينيها زرقة وفى السماء ظلام ..

ـــ أتحب أن تعرف .. أنت شىء فريد .. شىء آخر ..

همست بصوت كالفحيح ..

ـــ أريد حماما كثيرا من الحمام ..

وأنا أحب الحمام ، أحبه يطير .. ينطلق .. يرفرف بجناحيه بلا قيود ، بلا خوف ، أحبه يهدهد أليفه فى صوت كالموسيقى . كنغم الحب ، أحبه ينقر بمنقاره عنق أليفه ، عنق حبيبه ، عنق الحب نفسه ليستجيب فى صفاء .. وقلت :

ـــ الصمت .. الصمت ..

وكأنما فرض علينا ألا نقول ، وهل قلنا ؟ وكأنما فرض علينا ألا نبوح ، وهل بحنا ؟ .. يا رفاق .. الصمت .. الصمت .

وكانت تقول وثديها يندلق عند كتفى :

ـــ وتذكر هذه الليلة لا تنساها ..

وضحكت ضحكة ، طويلة ممجوجة بلا معنى ، كلها أصداء ، دون صوت يرن وسط الصدى ، دون حياة ، ألف أذن سمعت هذه الضحكة ، ألف عين رأت هذه الغمزة عند العين ، هذه الضمة عند الشفة ، هذه الثنية عند البطن ، ألف يد امتدت ، ألف قدم .. ألف حذاء .

ويقبع ميللر عند ساقى المرأة ، والرجل ينظر بلا خجل ... كآلة طباعة تخرج ألف نسـخة فى الدقيقة بل آلافا ، والعجلة تدور ، وطبعات وراء طبعات تخرج ، وصـوت الآلة صرخة محمومة فى ليل بليد قذر ، كله شحم ..

وقلت من جديد :

ـــ الصمت .. الصمت ..

يارفاق حين يولد الكلام الصمت ، فثمة حياة ، وحين يولد الصمت الصمت ، صمتا يموت الانسان .. وحين يولد الكلام كلاما يضيع الانسان ، يارفاق .. الصمت طريق المعرفة فاياكم والكلام ..

وقالت :

ــــ أتعرف ؟ لى شامة فوق ثديى ..

وضحكت وهى ترفرف بصوتها كغراب يحط فوق الأرض وقالت :

ــــ أتحب أن تراها ؟ ..

أمعائى يارفاق ، ليست تطاوعنى ، هى لا تحب أشياء فتنقبض، وحدها تنقبض .. لحظتها انقبضت كأنها تحمل عبء ألف خنزير ممتلىء اللحم ، كثير الشحم لا تهضم .. وقلت :

ــــ ومن رآها ؟ . وكم من رآها ؟ ..

النمرة .. أرأيت النمرة ؟ .. هــذا الشىء المتوحش الذى يسمى النجاح ما أقساه .. ما أروعه ، ما أتعسه ، أتدرى ما تقول .. لم استخفك الكأس ؟ ..

ــــ أأنهزم فأنا موجود ..

ــــ بل أنت تنتصر فأنت موجود ..

وكلاهما شىء واحد ، شىء مر يملأ الفم كراهية وبغضا ، ويملأ القلب وحشة وفراغا .. ويدعوك أن تلهث بحثا عن كأس تزيد الألم وتكثف المرارة وتخنقك ؟ يمسك بك بين مخالبهـا وتجرحك ، تميتك ، تعصرك .. لتصبح جهازا يملؤه الخمر وتنضج

منه الخمر .. عفن .. وما العفن ، ولدت من عفن وتموت فى عفن .. العفن هو أنت .. هو النصر هو الهزيمة هو الوجود ..

وقالت :

ــــ ذق فخذ الحمامة انه دسم ..

أوجعنى قلبى ما ألعنه ، فى كل وقت يوجعنى ، ويعتصر ، يئن مرارة وألما وينز صديدا . أرأيت الدسم .. ؟

وأنهار أمامى ألف شلال الى العدم ، وامتزج كل ضوء ، كل صوت ، كل نغم ، ثم ران صمت .. آه من الصمت .. ما أثقله ..

الصمت حين يرين على كل شىء ويغلف كل شىء ، ويخرس حوله كل شىء .. الصمت حينئذ معبود مقدس ، قرابينه حبات قلوبنا تنداح عند قدمى تمثال أصم ، فمه مصمت ، وعيناه .. محجوبتان والشمس لا تراه .. لا ولا القمر ..

والندى لا يحط عنده فهو لا يعرفه ، الندى يتبخر قبل أن يحط بجناحيه الهشين عند جذعه الصلب السميك ، سميك سميك كألواح زجاج مغبشة ، كقلب رجل صفيق وذهن بليد ملتزم .. ما أروع الصمت عند من لا يلتزم ..

وقالت :

ــــ كأسك فرغت فاملأها .

وكأسى مليئة حتى الحافة .. كأسى أنا أعرفها ، ما أنت وما كأسى .. وما الألم ..

وترجرج صدرها فوق ذراعى ، فوق صدرى ، فوق يدى . يداى ملتاثتان مجنونتان عربيدتان لا تتريثـان ، كفى كفى .. كفى يا جنون الصوت المحموم . كفى يا عهر الموءود حين ولد وحين نطق وحين كان .. كفى يا من ذابت كلماته فوق قطرات العرق والألم والخوف وعجز المحمومين ، وهزيمة المذعورين من لون الصباح .. كفى يا عدم ..

كيف تكور الثوب وسقط .. ؟

أكاد أجن .. كأنى وحدى ، كأن بى سعارا لا أدريه ، كأنما لا شىء ، لا شىء الا النهم .... عند الشفتين رقصة لم تتم ، وعند العينين نداء ذابل فاجر ، ورائحة البصل ، والجدران كثيفة وعالية، جدران بلا طلاء أحجار حمراء اللون ، بل سوداء ، بل بلا لون ، تصرخ فى صمتها لا تكف .. ألف مكتل من رمال حمراء بلون الدم ، سوداء بلون العدم ، بيضاء بلون الدسم .. وفخذ الحمامة مزق ، والعظم مزق .. وأسنانها تلوك وتلوك ، تطحن كل شىء فى صوت داو هادر كفحيح أفعى أقضها سم تحمله ..

كيف تكور الثوب وسقط ؟ ..

وحدى أطوف بجدران معبد خرب ، الأعشاب تعالت حوله

حتى أخفت كل نقوشه ، كل أسراره ، كل حكاياته ، كل أسراره المقدسة ، لم يعد مقدسا فيه الا نقيق الضفادع ، وصخب صراصير الليل ، ونواح بوم ينعق .. وريح تهز بقايا فروع كانت يوما لأشجار يانعة .. والشوك يدمى اليدين ، يدمى القدمين ، يدمى الصوت حين يلوكه الهواء .. ويموت ، ويبرز الصمت حافى القدمين ، مارد الجبهة ، شامخ الكلمة ، عملاقا كالأبد ..

البارد .. والصقيع يملأ كل شيء حولى ، ندف فوق رأسى ، فوق منكبى ، ندف ، ندف فى كل مكان ..

السخن ... والنار تملأ كل شيء حولى ، دخان وبخار ، يدور رأسي فى البخار والدخان ، يدور ويدور ...

وكان ميللر يحب المرأة وترك زوجته وتزوج المرأة ، ثم عاد الى زوجته يمارس الجنس ، ثم عاد الى المرأة يمارس الجنس ، ثم ذهب الى صديقة زوجته يمارس الجنس ، ثم عاد الى صديقة المرأة يمارس الجنس ، ثم مع الصديقين ، أعنى المرأتين ، أعنى الزوجتين ، أعنى مع العفن ، جيل الطائرات الفانتوم والبوينج والرحلة الى القمر والنزول الى قاع بئر الصديد والعفن والكلمات التىلا تغير عالما ، العالم الذى يرفض الكلمات ويلفظ أصحاب الكلمات ، يفتح الصدر حبا لميللر وأدب ميللر ودنيا ميللر لأنها دنياه لأنها حقيقته لأنها الصفحة الدائمة الناطقة على جبينه أقصد على قفاه ..

وقالت : ضع الكأس عند شفتى وضع كأسى عند شفتيك ، رحيق الحب أصفى هكذا ، بل هو جنون ، هو جنون ، هو دمار .. ما للحب وهذا الهراء .. وهذا الجنون وهذا العبث ، أطلال ودمن وخيالات شعراء مرضى حلموا بالمثل وعاشوا الطهر وصانوا التعس بالمتع ، والحجب سم الانسان ، ثم ماتوا وماتت أجيال ، وأصبحت المتع جريمة وأصبح الكل مباحا ، فالكل فى واحد والواحد هو الآنا ، والآنا غارقة فى الوحل ، أقصد الحضارة ، الفن لغة العصر ، أقصد الضياع .. عفوا. انه جيل الصهيونية وفيتنام وحرب كوريا وحريق المسجد الأقصى ودنيا المجانين فى حوارى سوهو وتحت أقدام السائرين فى بيكاديللى وميدان الطرف الأعز .. يانمر .. يانلسون يا رائع الجناح ، يا فاقد الذراع ، يا ضائع القدرة ، يا كأسا تدور وتدور وتدور وامرأة تهمس فحيح شىء فى داخلها يمور ، لا يهدأ ولا يمل .. يأكل الحديد والنار ويذيب صمت أبى الهول ويزيل ما بقى من أنفه .. ورجلها يبحث لها عن الرجال ، يسوقهم كى ترضى غلة ، وتؤكد ذاتا ، وترضى عن رجلها ، رجل العصر الحديث ، مثله فى أمنه ، وأمنه فى الرضا ، والرضا فى الخضوع ، والخضوع ركوع تحت الأقدام ، أقدام رجال البوليس المدثرة بالأحذية الثقيلة اللامعة الجلد ، وأقدام أصحاب المال المفرطحة المليئة بالنقرس والمعوجة من الأحذية الضيقة ، وأقدام النساء رائحتها

عفن تزكم الأنوف ، اختلط فيها العرق الغزير لجسد منهوم بعطر غريب مزور لم يدخل فى صنعه زهر وانما امتزجت فيها خلاصات غريبة لأحماض وقلويات ..

وأسنانها تلوك اللحم كأنه لا يذوب فى فمها ولا يتحطم تحت أضراسها ، حتى لا تريد أن تبتلعه ، فقط تريد أن تلوكه وتديره فى فمها ، متعة القضم والابتلاع لم تعد متعة ، وماذا فيها من جديد ؟ ان جزءها الهام يتم فى معدتها حيث لا تحس ولا تشعر، انما هى تريد أن تمارس الافتراس بنفسها الواعية بأضراسها القوية ولسانها الحاد كأنه أداة عاصره ماصة ، كأنه رأس ثعبان شرس يرقص على نغمات مجهولة خبيثة ترضى ذلك السم الذى يملأ جسده الأملس اللزج المخيف ..

وهى تلوك وتلوك ،ورائحة اللحم العفن تملأ الدنيا حولى ، ورأسى يدور ، وأنا أهمدتنى الرحلة ، قتلنى البحث الطويل ، وقالت :

ـــ انه يعرف أننى معك ، وسيحضر عند الميدان الكبير لنذهب معا الى البيت .. هات كأسا كمان ..

أصاح أنت أم فؤادك غير صاح .. سارتر كان يعرف أن هناك شيئا بين كامى وسيمون ، وكان يعرف أن سيمون أعطت نفسها لرجل فى شيكاجو وأن المرأة تريد الرجال وأنها حلوة ،

هى كتبت بنفسها هذا ، هى قالته ، وذهب مثقفوها يحكون مثل هذه الحكايات ، والكل يزحف الى النهر والنهر ليس بملآن ، شطآنه العاريات يقضها وهج الشمس الضارية الملعونة ، وتنبعث من صخورها رائحة الوحدة والضياع ، والقلوب المعلقة .. ألم تحس أبدا أن قلبك معلق لا يشده شىء ، يكاد يقع وحده فى فراغ وعدم . ؟

قال ميللر . كأنها حقيبة واسعة تغوص فيها ألآف الأشياء ، تحشوها بها حشـوا فلا تبين .. وتستعد من جـديد لآلاف الأشياء ، وألاف الأشياء تضيع وتهدر عند عفن امرأة وشـعرها الكث تبلله أمطار مريضة أذابت دخان المصانع وبخار المراجل ، والرياح المتصاعدة من قمائن الطوب وأفران الجثث صنعت من جلودها الحقائب ورميت لحومهـا وعظامها للنـار اللاهبة والأحماض المريبة المذيبة الآكلة .

وتحطمت عظام الحمامة تحت اضراسها وابتسامتها بشعة لاهثة ، وفى عينها متعة الذئبة وصراخ الخنافس وصـيحات المتظاهرين يطلبون الدم والثأر ممن مات بلا سلاح لأنه همس بكلمات اللعنة قبل أن يموت ..

يا أمى .. يا من عشت وراء الستور ، أنا تمزقنى الرياح ، تتقاذفنى لترمى بى على صخور حافة النهر تجرح جسدى تلك

الرياح الشرقية بل تلك الرياح الغربية ، بل تلك الرياح الدائبة يا أمى ، هاتى النار وأوقدى المدفأة ، واسمعى صراخى ، أنا أصرخ يا أماه .. يأكلنى العذاب ، اين دمعاتك ؟ ، أين همستك .؟ أين الحنان ؟ أين أن يرعاك انسان ؟ أن يحس بك انسان ، أن يحسن جرحك انسان ويرتاد معك انسان .. أين الانسان . ؟ يا عذاب ..

ـــ توصلنى الى الميدان ..

وفخذها فى لون البللور خالطه الرمان وامتزجت فيه أنفاس الحوت الذى ابتلع يونس .. وضاع يونس فى بطن الحوت ، وضاع الحوت فى بطن البحر وضاع البحر فى بطن الأسطورة وضاعت الأسطورة فى بطن الانسان ، وخرجت من جوفه المليء بكلمات جوفاء ، شعرا مرة ، قصة مرة ، مسرحا ربما ، ولكنها الروائح التى تحيط بكل شيء وتخنق كل شيء .. البقايا الخضراء الباهتة فوق حافة اناء الزمن .. العفن ..

وتخرج .. وحدها تخرج وفى الكأس بقايا ثلج ، لا شيء الا بقايا الثلج . يلسع فى الفم ، ويصرخ فى الكأس ، وحيدا يذوب، وعند الصباح لن تبقى الا قطرات من ماء .. ممزوجة ببقايا شراب وريح شواء ورائحة بصل .. عصير العفن ...

حوار

لو تعبرني هذه الكأس ..

١٩٦٩

هى : خشيت ألا أجدك فما كنت أظنك جادا حين دعوتنى ..

هو : الوهم ملأ قلبك ..

هى : أعرفك .. الحقيقة عندك شيء يتغير .. وما أنا الا حقيقة متغيرة ..

هو : وهم .. فان تغيرت أنت ، فأنا لا أتغير ...

هى : بل أنت تتغير كما يتغير الهواء الذى يملأ رئتيك فى كل تنفس ..

هو : تظلميننى ..

هى : بل أعرفك ..

هو : فمن أنا ؟

هى : غذائى الذى لا يهرب منه ، وحبى الذى أخفيه ولا أجرؤ أن أعلنه لأنه ولد فى الظلام ويعيش أبدا فى الظلام ..

هو : ومن الظلام والى الظلام يعود ..

هى : لقد قلتها . أتلومنى ؟ .

هو : أنا .. أنا لا ألوم ، وانما ..

هى : انما تختفى وراء الكلمات ..

هو : صدقت ..

هى : آلمتك ؟

هو : ربما .. لكن .. ماذا يهم ؟

هى : يهمنى ..

هو : أعرف ..

هى : أحبك ..

هو : هذا مخيف .. لا حب فى حديثنا ، فالحب فى حديثنا خطر يجب أن نتجنبه وأن نمحوه وأن ...

هى : حذار .. تنسى نفسك ..

هو : بل أذكرها ..

هى : وتنسانى ..

هو : أريد ولا أستطيع ..

هى : بل تستطيع .. ولا تريد أن تجعلنى فى قلبك ..

هو : قلبى .. أنت فيه ..

هى : حذار ..

هو : دعينى أقولها ..

هى : أمنعك لأنى أحبك ، ولأنى أعرف أنك ستتألم لو قلتها ،
أرجوك لا تقلها ..

***

هى : بل أرجوك قلها ..

هو : فات الأوان .. لقد أيقظتنى وأنا مدين لك .. وداعا ..

هى : حقا ؟.

هو : نعم .. فلا لقاء بعد اليوم ..

هى : أنت واهم ..

هو : كيف ؟ .

هى : لن تنسى . أبدا لن تنسى شفتى ..

هو : رائحة التفاح ..

هى : لا ولن تنسى همسا قلته فى قلبك ..

هو : رفيف أجنحة الملائكة حيرى بين السماء والأرض

هى : لا ولن تنسى شعرى يغطى وجهك عطرا ..

هو : الحرير يجرح وينبح الدم ..

هى : ودمى لك .. أنا أعطيته ..

هو : ليست لى هذه الكأس ..

هى : انها لك .. بل لك ..

هو : تعبرنى ، لا أقربها .

هى : أنا أمنحها بلا مقابل ..

هو : لا أحب الأخذ بلا مقابل ..

هى : ولكننى لا أريد ..

هو : وأنا لا أستطيع ..

هى : ترفضنى ؟

هو : بل أرفض أن أخدعك ..

هى : أتقول عن الحب انه خدعة ؟

هو : الحب بلا مقابل خدعة ، ان لم أقلها أنا فستقولينها يوما ..
هى : أبدا وحياتى ..
هو : أنا أعرف ..
هى : كيف ؟ هل جربت من قبل ؟ هل عرفت هذا ؟ .. ومتى ؟ ..
هو : وتلومينني ..
هى : أليس من حقى أن أعرف ؟
هو : من أعطاك هذا الحق ؟
هى : الحب ..
هو : الثمن هو قلبى ، ماضى وحاضرى ومستقبلى .. أرأيت .. ؟
هى : لا أعنى ..
هو : أعرف ..
هى : أتكذبنى ؟؟
هو : تشاجرنا ...
هى : أنت قاس ..
هو : وتشاتمنا ..
هى : أقسم لن أراك ..
هو : وافترقنا ...

حكاية صرصار

حكاية أضاعت رجلا ..

١٩٦٣

الصرصار كان يزحف ببطء شديد عند حافة صورة أمه ، تبدو شواربه من وراء الفرجة بين الاطار والحائط تتحرك فى سرعة وتوقيع وكأنه يرسل اشارات ذات قيمة كبيرة وانهمك فى ارسالها دون توقف .. تلتقى الشوارب ثم تبتعد ، ثم تعود لينضم واحد منها الى الآخر بينما تجرى فيها حركات لولبية كأنما يمسها تيار كهربى خفيف لا يصعق وانما يرقص ..

واستغرقه النظر الى الصرصار تماما فنسى ما كان لسانه يردده فى آلية منذ لحظات ، وحاول أن يتذكر ولسانه يدور بحثا عن أى شىء ، ولكنه كان قد نسى تماما .. فعاد يقرأ من جديد « قل هو الله أحد » ولكن خاطرا لمع فى رأسه فجأة ، ماذا لو كان قد سرح أثناء قراءته للفاتحة ؟ ألا تتلف صلاته ؟ وكان الحل سهلا ليبدأ من أول الفاتحة من جديد ..

وبينما كان يردد البسملة أسبل عينيه فى تقى ، وحصر ذهنه

تماما فى كل ما يقول وضم كعبيه فى خشوع ، وحنى كتفيه فى تواضع فهو أمام الله ، يؤدى الصلاة والرهبة تملأ قلبه ، وخشية الله ترهب نفسه .. وأغرورقت عيناه بالدموع .. ابتلت تماما .. ورفع يده يتحسس عينيه ، كانت هناك فعلا آثار ابتلال ، فعصر عينيه عصرا ، ينبغى أن يكون بكاؤه حقيقيا نابعا من القلب .. فهو فنان ، ومن أقدر من الفنان على فهم عظمة الله والبكاء فى حضرته ؟ وعاد يعصر عينيه ثم رفع يده يتحسسها ، وضايقه أن يجد آثار الدموع كما هى لا تزيد .. لا .. هذا لا يجب .. أيقول عنه الله أنه لا يخشاه كما يجب .. فقد كان النبى يبكى حين الصلاة ، لا حين قراءة القرآن ، لا حين الصلاة ، أنا واثق .. خلاص .. وأبو بكر وعمر .. نعم وعثمان .. ولكن عثمان قتل ، وهو لا يحب أن يقتل .. ولكن ما رأيك فى هذه الميتة ، تجلس فى وسط الدار .. أى دار ؟ .. تقصد وسط هذه الحجرة مثلا .. لا .. الصالة اذن ؟ .. ولا هذه .. حجرة المكتب .. وعلى مكتبى الكبير المليء بالمجلات والكتب وحولى المكتبة تغص بالمجلدات الكثيرة ، وفى يدى المصحف الكبير أرتل القرآن وأبكى ، يدخل المتآمرون ، وينظرون ، ثم يبهرون .. ويقولون هامسين .. كم هو تقى ، ونقى .. انه نبى .. ويسكت الهامسون لحظات ويتأمل هو وجوههم .. انه يعرف معظم هذه الوجوه .. وجه المدير العام .. وازدادت وقفته تصلبا ومرت فى جسده قشعريرة ، واشتد تقوس كتفيه .. ثم هذا وجه المراقب العام .. فى عينيه

نظرات اعجاب ، وازداد تأمله فى وجه المراقب العام .. أحقاليس فى عينيه هــذا التعبير الغريب الذى هــو مزيج من الازدراء والاستهانة .. انه يقول لنفسه ، لقد كنت مخطئا فى حقه ، انه يقرأ القرآن ويصلى ، وتبدو عليه معالم العبادة والتبتل .. ان المراقب العام يهوى الكلمات الشاذة .. فماذا يقول .. يقول يتهجد .. ولكنها كلمة عادية .. من قال انها عادية ، انها كلمة عويصة ، هو نفسه ـــ على علمه الغزير ـــ لم يعرفها الا منذ مدة .. انها كلمة فيها دراما .. سيحدث الطلبة فى المعهد العالى الذى يلقى فيه محاضراته عن كلمة تهجد وما فيها من دراما .. تصور ماذا سيحدث حديثه عن هذه الكلمة من أثر فى الطلبة .. سيعرفون كم هو عبقرى ، كم هو فلتة من فلتات الزمــان ، أو ليكتب عنها مقــالا ينشر فى المجــلات أو الصــحف فهو يعرف معظم المحررين ، بل أكثر من هــذا انه يوزع عليهم من الأعمال ما يدر لهم مئات الجنيهات ، وهم أصدقاؤه وسينشرون المقال ، ثم يجمع المقالات فى كتاب ، لا فى كتب .. ويكتبون عن هذه الكتب مقالات عظيمة تتوسطها صورته التى تظهر بين الحين والحين فى الجرائد باعتباره مسئولا وفنانا .. بعضهم يقول انه مجنون ، وبعضهم يقول هو مخرف .. ولكنه ســعيد بهذا ، فالجنون والتخريف دليل العبقرية ، وهو عبقرى ، ولن يسمح لأحد أن ينسى هذه الحقيقه أبدا .. وسمع صوت أقدام فى الصالة ، فتذكر فجأة أن وقفته قد طالت وأن لسانه قد انقطع عن

ترديد الآيات ، وحاول أن يتذكر أين وقف تماما ، وفكر فى أن يعود الى قراءة الفاتحة من جديد ، ولكنه خاف ، فهو يقف هــذه الوقفة منذ زمن ، وخشى أن تكون وقفته قد طالت فيكتشف من بالبيت أنه قد نسى الصلاة . بل لا بد أنهم قد لاحظوا فعلا أنه ظل واقفا أطول من اللازم .. والحل الوحيد أن يركع ، ورفع يديه الى رأسه قائلا بصوت عال .. الله اكبر .. ثم ركع .. وأصبح وجهه يواجــه السجادة التى أهداها له أحــد الصحفيين بعد رحلته الى الحجاز .. انهم يحبونه لا ريب ، أو على الأقــل يحترمونه ، مؤكد .. ما المشــهد الذى كان فى رأســه ؟ تمام : الوجوه وهى تنظر اليه فى اعجاب وتقدير .. وهم يقولون عنه انه عبقري وخالد وانه شهيد .. سيموت وهو يقرأ القرآن ، المصحف مفتوح على ركبتيه .. وكيف يتم ذلك وهو جالس على مكتبه . ؟ أيمكن أن يضع المصحف على ركبتيه اذا ما استند بهما الى حافة المكتب . ؟ وماذا سيقولون فى هــذه الحالة .. قطعا سيزداد اعجابهم به فقد زاد شيئا فى المشــهد التاريخى المشهور .. ما هــذا الشىء .. ؟ هــذه ليست مهمته وانما هى مهمة النقاد .. أن يكتشفوا سر تفرده ، وأن يعرفوا ماذا أضاف الى التاريخ ، وكيف أثر فى الحركة الفنية فى البلد .. وأن يذكروا أن كل كتاب هذا البلد ، بل وكل فنانيه يتملقونه، ويزحفون بجباههم ملتصقة بالأرض أمامه ليمد لهم يده الكريمة .. ويده مصابة بالاكزيما وقد داخ عند الأطباء المشهورين جميعا ،

ولكنهم يريدون النقود ، نقودا كثيرة ولا يكتفون باسمه كمريض ممتاز يشرفون حين يتنازل ويذهب للعلاج فى عياداتهم .. بلد اللا مفاهيم ..

واعتدل من ركوعه ، وشد قامته ثم عاد يقوس كتفيه ، ويده السليمة تعانق يده المصابة فى حنان وهما يستقران عند صدره كما تقتضى الصلاة ، وكان الصرصار قد خرج من مكمنه وراء الصورة ليستقر فوقها تماما ، وأزعجه هذا .. فوق صورة أمه.. صرصار بشواربه الطويلة القذرة .. وأمه فى طرحتها السوداء ووجهها الصارم المجعد تنظر اليه فى ثبات ، تقول حكايات ، طالما سمعها تحكى له من داخل هذا الاطار .. أن يثرى ، أن يقوى ، أن يصل .. الى القمة يصل .. وكانت تهمس صل لله أن تنجح ، أن يموت أعداؤك ، أن يقبر منافسوك .. صل .. صل .. ومضى يتمتم من جديد بعبارات متعثرة .. لعلها الفاتحة ولعلها سورة قل هو الله أحد ، ولعلها تأليفات من عنده .. لا يدرى الا أنه ينبغى أن يتمتم وأن يستمر لسانه فى الدوران وأن يحنى كتفيه ليستقر رأسه فوق صدره فى خشوع .. فأمه تنظر اليه ، ترقبه ، فى عينيها هذه القسوة الرهيبة التى كانت توقف الكلمات فى حلقه فيظل يفأفىء الى أن تصل يدها الثقيلة الى وجنتيه فى قسوة وعنف ، فينطرح فوق الحصير الممزق بجلبابه الأبيض القذر ، وترتطم يده بالطبلية التى لم ترفع بعد منذ تناولوا

الفطور ، هو واخوته الصغار ، ويصيح (كفـايه يا امه) ..
أكان يقول يا امه ؟ .. لا ، كفايه يا ماما .. وتلفت حوله .. لا ..
لم يسمعه أحد ، ليس بالحجرة أحد .. هو وحده يصلى ، وعاد
يتجـه ببصره الى أمام ولسـانه يدور فى تمتمات وقد أخـذ
الاحساس بالغيظ يملأ نفسه ، أدائما هذه الذكرى ؟ الحصير
الممزق ، والجلباب القذر ، والطبلية وصياح العيـال فى درب
بمبة . ؟ كل هذا خلاص انتهى .. وعاد ينظـر الى عينى أمه ،
وهمس .. انتهى من زمان ، لا أحد يستطيع أن يضربنى ، أنا
أضرب الجميع .. لا أحد يستطيع أن يهزأ من الحصير البالى
ففى بيتى سجاد وثير ، وتطلعت عيناه الى السجاد الفاخر تحت
قدميه .. درب بمبه وعم عباس بياع البليلة ونظرته النهمة الى
ساقيه العاريتين فى بنطلونه القصير كلما مر من أمام عربته ..
لا .. لا .. وأخذ ينظر رأسه الى اليمين والى اليسار فى حـدة
لينفى كل هذه الخواطر الغريبة التى تسللت الى ذهنه واحتلت
عقله كله ، وتوقفت عيناه عند الصورة فالصرصار قد استقر فوق
صدر أمه ، عند الثدى تماما ، وشواربه تتحرك فى تداخل وكأنما
يرضع الصرصار الثدى .. غير معقول هذا الكلام .. ألا يأتى
أحد ليبعد هذا الصرصار ؟. لو رآه أحد من أعدائه الصـغار
الملاعين لأخذها أضحوكة يملأ بها الدنيا من حوله كلها ، ينبغى
أن يبتعد الصرصار .. وسمعت أذناه وقع قبقاب فى الصـالة ،
فارتفع صوته بقوله : الله أكبر .. ووجـد نفسه مضطرا الى

الانحناء فى ركعة لابد منها والا حسبه من بالصالة يبدأ الصلاة فيضطر الى اعادة الركعة السابقة كلها ، وهـذا غير معقول ، أو ربما حسبه من بالصالة قد سرح عن صلاته وهو ليس عن صلاته لاه ، بالعكس انه من صلاته يبكى ، نعم يبكى ، ينبغى أن يبكى ، وأخذ يعصر عينيه عصرا ولكن الدموع لا تأتى هكذا .. كيف تأتي اذن ، انه يعرف فهو فنان ، المسألة أن يتذكر شيئا يدعوه الى البكاء فيبكى ، ولكن أسيظل محنيا هكذا .؟ طبعا فينبغى حين يقف أن تكون فى عينيه الدموع فمن سيدخل من باب الصالة يجب أن يرى فى عينيه الدموع ، ثم هو يستريح دائما الى وضع الانحناء هذا .. والآن عليه أن يبكى .. سيقطعون رأسه مثلا تحت الجيلوتين .. لا لا يستطيع أن يتصور هذا .. رقبته تقطعها سكين ؟ هذا كثير .. اذن يشنق .. هو سفاح الاسكندرية ينزلونه من الزنزانة ، لحظة ، حين جاءوا اليه فى الزنزانة كان متماسكا تماما ويقول لهم ، غفر الله لكم انى برىء .. ما هذا الكلام ؟ لا ، كان شامخا ، عضلات صدره بارزة وشاربه الكث يسخر من ضعفهم ، هؤلاء الأحياء .. وأحس بيده ترتفع من فوق السجادة ليتحسس صدره ،كله ضلوع ، صدر أعجف .. ثم شاربه ، أ ف لقد حلقه منذ مدة .. وأوجعه رأسه ، كان يرتكز بكل ثقله عليه بعد أن رفع يده يتحسس ضلوع صدره ، يقصد عضلاته .. وكاد يعيد يده الى الأرض لتتحمل عن رأسه ثقل جسده حين تذكر أن هذا الوضع هو الوحيد

الذى يمكن أن يكون زبيبة الصلاة فوق جبينه ، فرفع يده الثانية عن السجادة وأصبح يرتكز بجبهته فقط عليها .. ثقله كله مركز على جبهته ، وأخذ يضغط ويضغط .. لقد نسى منذ مدة أن يزيد من بروز الزبيبة لتبدو واضحة جلية تلفت النظراليها ، وتذكر ذلك الرجل الساحر الذى قال له ذات صباح : ألم تغسل وجهك ؟ وحين سأله : لماذا ؟ ابتسم ابتسامة وقحة وقال له : هناك تراب عند جبهتك .. وسكت ساعتها مغضبا ثم قال له فى وقار .. ان هذه الزبيبة موجودة منذ مدة لأنه يصلى .. ولم يزد الرجل الساحر عن هزة من رأسه ومضى .. وظل فى المكتب ذلك اليوم يتلقى نظرات غريبة من كل من يدخل عنده .. وانتابه زهو كامل فهم قطعا يتهامسون بتقواه وورعه ، ولكنه نسى حين عاد الى المنزل وغسل وجهه فزالت الزبيبة .. وزاد من ضغطه على رأسه فلا بد أن تعود هذه الزبيبة الى الظهور ، ثم استند بيديه الى الأرض ومضى يحك جبهته حكا بالسجاد وقد بدأ جلد جبهته يؤلمه .. ولكن الألم لم يكن له قيمة ، فلا بد من الألم لكل عبقرى ، لابد من الألم فهذا ثمن العبقرية ..

عبقرية .. كلمة كالسحر ، كالخلود ، كالبقاء .. كلمة كالوجود كله بأحلام الماضى ، وزهو الحاضر ، والرؤى الزاهرة الحالمة فى وضح النهار للمستقبل . وكف فجأة عن حركته اللولبية على الأرض وأحس بنفسه ينتفض واقفا وقد ملأ نفسه شيء غريب ، سحابة قاتمة معتمة كان يظن أنها انزاحت من سماء

حياته الى الأبد .. ولكن ها هى تعود .. نعم تعود .. كاللمحة تعود ، وأنا عند مكانى فاغر الفم مذهول .. اسم عريض كما لم يحلم أبى يوما أو جدى .. ورزق متاح كثير ، ومكان مرموق ، وزوجة وأولاد ، وعربة ومنزل ملكى أنا .. وهم يقولون فنان .. من وحى نفوذى أنا فنان وفى نظرات عيونهم ألمح السخرية ، ألمح الهزؤ ، ألمح الضعة ، ولكن حين يتحدثون ، حين يكتبون يخطون الكلمة وينطقون اللفظة رغم أنوفهم ، رغم كرامتهم ، رغم عقولهم .. أنا فنان وعبقرى .. وكالسحابة المثقلة بماء كثير حط هم لا مصدر له على صـــدره وأمسك بأصابع من فولاذ بقلبه .. ما كل هذه ؟ . بعث الطــريق .. بعث الخلود .. بعث الوجود .. من أجل يومى ، وطعام يومى ، ودفء يومى .. من أجل مستقبلى كموجود يعيش لا كخالق مبدع .. وضـــاع .. ضاع من كنت ، راح فى رغام فى وهم ، فى حلم .. وهل أنا حلم.. وجودى حلم ؟ أولادى حلم ؟ مركزى الـــكبير وجاه المنصب والنظرة الخائفة فى وجوه المرءوسين وتأشيرة بالقلم الأحمـــر الكبير فيها فصل الخطاب ، أهذا حلم ؟ وكيف تكون الحقيقة اذن ؟ كيف تكون ؟ ..

ووثب الى عينيه صورة زميله أيام الدراسة ، زميله صاحب الاسم اللامع فى عالم الكتابة والمركز المرموق بين أصـــحاب الأقلام ، وعلت شفتيه بسمة مريرة ، لقد نجح .. نعـــم نجح

كنجاحه هو .. المركز والطعام الوفير ، وآلوف الخائفين الوجلين، المتملقين الزاحفين .. وفى أمسهما كانا يبيتان على الجـوع ، والليل يمر كله بسـيجارة واحدة يقتسمان أنفاسـها المعدودة والمصباح المريض يلهث بآخـر ما تبقى فى البيت من غاز وهما يقرآن فى نهم مسعور ، ثم يتحدثان ، ويحلمان .. بشيء آخر كانا يحلمان .. بمجد الكلمة ، بشرف الرأى ، بدنيا جـديدة يصنعانها للبلد الفقير الذى يحبان ، بصيحات مخلصة يقولانها ملء الصدور ، ولن يخافا الا من المغريات ، وهما لن يخضـعا للمغريات .. من الجوع صاغا أحلامهما .. من الحرمان نسـجا خيوط الوهم العريض .. وجاء النهار وعرفا العربات وسـهر الليالى حتى الصباح ، وغزل متاح ، ودنيا من الزاحفين يزينون الصعود .. تعنى الهبوط .. اخـرج من رأسى .. هو صـعود وأحلامك أوهام مجـانين مخابيل .. من كان يظن أن صاحبنا القمىء ذا الوجه المعروق البالى تسجد تحت قدميه اماء ليـل القاهرة تسترضى بسمته وكلمة من قلمه ، ومكانا من صفحته .. من كان يظن أن ذاك الذى أمضى أيامه ولياليه يبكى مقالا ظن فيه العبقرية وصب فيه جهد المتعبين ورفضه الناشرون يغـدو اليوم كالاله كالقمة فى عجز جريدة سيارة فى صدرها .. وهو نعم .. أنا اليوم فى قمة ولا كالقمة .. المجد عند أعتابى يركع .. آه من طعم المجد ما أحلاه .. فى محل البقالة أشار العامل الى وقال أنت فلان سمعت لك .. ما أروع ما سمعت .. ورفض أن

يأخذ ثمن البضاعة .. أرفض حقا .. ؟ .. وما دخلك أنت ألا تفهم النهاية الدرامية ؟ ينبغى أن يرفض حين يعرف حقيقة شخصيتى وقد رفض .. والتقت عيناه بالصورة . كان الصرصار قد وصل فى زحفه الى الرقبة فأخفاها كأنه يقبلها .. ويقبل أمه .. غير معقول .. وكاد يندفع ليحطم الصورة ؛ ولكنه أمسك نفسه فى صعوبة فهو يصلى ولو قد رآه أحد يخرج ليطرد الصرصار لظنه يعبث . ولكن الصرصار يكاد يقبل أمه ، بل هو يقبلها .. وفى حركة شواربه نعطش وحنان كالطفل .. أف ، طفل ، ما هذا الغباء .. ينبغى أن يرده أن يقتله أن يصفعه .. نعم يصفعه ، ويصفع الجميع ، يضرب ، يقتل يمسك بمسدس ويطلق النار ؛ ويظل يطلق ويطلق ويطلق والناس تقع عند صدورها بقع حمراء من آثار انبثاق الدم .. لا سيطعن بالسكين ، ويطعن فى الصدور ، هذا الوجه وهذا الوجه ، الساخرين العابثين ، المتمسكين بما فى الكتب ليطعنهم فى الظهور .. فى الظهور ..

وهدأ .. فى الظهور .. نعم فى الظهور فعيونهم تقول أشياء رهيبة مقيتة .. لا .. انه لا يفهمها لا يعرفها .. ورفع يده الملطخة بالدم الى عينيه ، أبدا ليس فيها دم .. فيها أكزيما فقط . وعادت يده الى صدره وفوقها اليد الأخرى ومضى يتمتم فى ذهول الفاتحة ، فهذه هى الركعة الثانية وينبغى أن ينتهى منها بسرعة لأن الصرصار عند فم أمه .. والصرصار ينبغى أن يبتعد ، ويبتعد ..

وأنا يا رب لم أقصد والله لم أقصد ، ألا تصدقنى ؟ كان الطريق سهلا معبدا ، ونسيت ، ثم الزوجة والأولاد .. والزوجة أنت تعرف ولماذا أحكى لك ؟ .. أنت تعرف .. كانت العبقريه هى المبرر .. هكذا خلقتنى ، وقلت لها العبقرية ، وصدقت ، وحين جاء الطريق الممهد وجاء المال والمركز صدقت حكاية العبقرية ، يا رب هى تؤمن بى رغم أمراضها العصبية ، رغم نظراتها الحائرة .. ولكنها تعرف .. كل العباقرة هكذا .. لم أقصد يا رب .. الصرصار اقترب من العينين ، ينظر فيهما ، فى داخلهما ، ماذا يريد أن يعرف من عينى أمى .. أبعده يارب ، أبعده عن العينين .. أنا ورثت عينيها وعقلها الراجح ، أنا ورثت عبقريتها الفذة ورائحة الملوخية تتصاعد من بئر السلم فى بيتنا عند مدخل الحارة ، وأخى الصغير فى الحوش يزحف وسط ماء كثير وقد اسودت فخذه من مزاج طين وماء .. كفى لتقرأ السورة التالية فقد طالت الصلاة وأحسبهم قد تأكدوا من تقواى .. عرفوا مقدار ايمانى بالله رغم أننى أومن بنظرية التطور .. وماذا فى هذا ؟ لكل شىء أوان .. والصرصار ما يزال يحدق فى العينين.. شواربه ترقص فى نغم خليع .. كالراقصة يوم كنت فى ملهى الليل مع ذاك الصديق الشهير تتأود فى مجون وتلصق جسدا أبرزه قماش ملون التصق به ، تلصقه بكتفى وتلعب بيدها فى شعرى وتتأوه .. والويسكى ليلتها جعل ملمسها كالحلم .. كالأمنية .. ان الصرصار يزحف ، عند العينين وشاربه يرقص ،

أتذكر الولد الصغير ، أخاك يلعب فى الحوش ويزحف ملتصقا بالأرض ويداه أمامه تلعبان وترقصان كهذه الشوارب.. والراقصة يومها قامت من جواره ، ثم انطفأت الأنوار ومضت تزحف فى بؤرة من نور فوق مكان مرتفع .. فى وسط المكان موسيقى صاخبة حادة ، وصديقه اقترب من أذنه وقال أأعجبتك ؟ هى لك الليلة ان أردت .. وهمس بصوت كالفحيح : لا ، وقال القمىء الشهير ، هى ملك يدى ، أتذكر أيام الجوع والحرمان وليال مسهدات نحكى فيها عن نساء ونكذب ، هذه الليلة حقيقة وهى ملك يدك ان أردت .. ولكن كيف ؟ ، وحين تنتهى الضجة وتحتوينا حجرة فاخرة فى بيت ذاك الصديق ، أتؤمن هى بالعبقرية ؟ وما العبقرية عندها ؟ نقود ، وصاحبنا سيعطيها النقود ، ونفوذ يجعل منها نجمة وصاحبنا عنده القلم الذى يصنع أمثالها من النجوم . ولكن هى ماذا ستقول فى أعماقها .. بينها وبين نفسها ؟ أتصدق حكاية العبقرية ؟ .. ثم هزت أردافها فى عنف وانثنت وعادت تعتدل ، وكأسه خلا فملأ ، ساق دءوب وامرأة أخرى طرية جلست بينه وبين الصديق ووضعت يدها على فخذه ..

وهمس : أستغفر الله العظيم .. أهذا كلام وقت الصلاة ؟ اركع ، وركع وتمتم وقام ثم سجد واعتدل وسجد ، ثم اعتدل.. ولم يقل شيئا ، ولم يفكر فى شىء ، فقط أحس بعرق غزير ينداح من كل جزء من جسمه ، ويده التى تأكلها الأكزيما تحرقه بشدة

فحكها بيده الأخرى ، واعتدل فى جلسته على الأرض وقد ثنى ساقيه تحته ووضع يديه فوق الفخذين وعيناه عند الصورة ، عند الصرصار وشيء حزين يغمر قلبه .. وظل هكذا وقد نسى نفسه ، ونسى أن يبكى ، أن يفكر ، أن يردد التحيات .. وما كانت عيناه تريان شيئا ..

وسمع صوتا وراءه فى الصالة فتحركت شفتاه فى تمتمات وارتفع اصبعه عن فخذه اليمنى ثم ارتفع اصبعه عن فخذه اليسرى والتقت عيناه بالصرصار يقف بالعرض فوق رأس أمه ، كأنها تحمله فوق رأسها وكأنه استراح الى هذا المكان فاستقر واستكن ولم تعد شواربه تتحرك بل استكن تماما كأنه جزء من الصورة ، وبدأ قلبه ينبض فى عنف ، الهوان .. لا .. هذا الصرصار ينبغى أن يموت .. يموت .. وكاد يقفز ليقتله ولكن الصوت بالصالة غدا أكثر وضوحا فعلا صوته فى تمتمات يتخللها حرف السين فى جرس عال ومضى يعد من الواحد حتى العشرين، المدة كافية لانهاء الشهادتين ، واستدار الى يمين وهو يحنى رأسه، ثم استدار الى يسار وهو يحنى رأسه ، وكان يتمتم وحوقل حين وقف وهو يمسح وجهه بيديه المرفوعتين فى ابتهال وهو يحاذر أن يقترب من جبهته الملوثة بالتراب ، واسترق النظر حوله ولم يجد أحدا ، وخطا خطوة قريبة من باب الحجرة ، وتطلع فى الصالة فلم يجد أحدا فاستدار وقد لمعت عيناه فى وحشية وانقض على الصورة .. على الصرصار ..

صدر للمؤلف

● فى القصة

١ ـ القرصان والتنين ـ الهيئة العامة للتأليف والنشر (يوليو ١٩٧١)
٢ ـ الكل باطل ـ الكتاب الذهبى .. دار روزاليوسف (يونيو ١٩٦١)

● فى المسرح

٣ ـ أيوب ـ الهيئة العامة للتأليف والنشر (أكتوبر ١٩٧٠)
٤ ـ ثلاث مسرحيات ـ المسألة ـ ثالثا وأخيرا ـ حفلم بظاظا (١٩٦٩)

● فى الرواية

٥ ـ سيف بن ذى يزن ـ الطبعة الأولى دار الهلال (يوليو أغسطس١٩٦٣)
الطبعة الثانية دار الكاتب العربى (يناير ١٩٦٧)
٦ ـ مغامرات سيف بن ذى يزن ـ دار الهلال (نوفمبر ديسمبر ١٩٦٤)
٧ ـ على الزيبق ـ دار الهلال (أغسطس ـ سبتمبر ١٩٦٧)

● فى الدراسة

٨ ـ محمد فى الأدب المعاصر ـ المكتب الفنى (١٩٥٩)
٩ ـ فى الرواية العربية ـ الدار المصرية (١٩٦٠)
١٠ ـ بين الأدب والصحافة ـ الدار المصرية (١٩٦٢)
١١ ـ فن كتابة السيرة الشعبية ـ دار الثقافة العربية (١٩٦٢)
١٢ ـ أضواء على السير الشعبية ـ المكتبة الثقافية ـ دار القلم (١٩٦٤)

فهرس

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٣٦٩٧/١٩٧١

الثمن ٢٥ قرشا

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر